ميريت
الكالورمي
رواية
أميرة حسن الدسوقي

الكالورمي
رواية
أميرة حسن الدسوقي
(c) دار ميريت
32 شارع صبري أبوعلم، القاهرة
تليفون / فاكس: 5797710 (202)
www.darmerit.org
merit56@hotmail.com
الغلاف: **أحمد اللباد**
المدير العام: **محمد هاشم**
رقم الإيداع: 2018/4137
الترقيم الدولي: **978-977-351-832-8**

أميرة حسن الدسوقي

الكالورمي

ميريت

القاهرة 2018

الإهداء

إلى أمي.. سبب كتابتي لهذه الرواية
وإلى إيهاب نجدت.. سبب نشْري لها.

مقدمة

للميناء الجوي رائحة المطاردة، استنشقتها وتركتها تسري في صدري حتى وصلت إلى خلايا مخي. كدت أركض بمكاني في صالة الانتظار أطارد الحلم، أخرجتُ النفَس بتنهيدة عالية، لفتت نظر الطفلة الجالسة أمامي، أقبلت تتفحَّصني بعينيها الواسعتين البريئين، حتى وصلت بها إلى الشريطة الزرقاء المُلتفة حول معصمي، مدت أصبعها الصغير ولمستها، ثم ملَّست على شعرها وهي تهز جسدها يمينًا ويسارًا، مطالبة إياي بوضوح -لأي شخص يفهم لغة الجسد- أن أمنحها الشريطة، ابتسمت لها دون تلبية لمطلبها، أدرت وجهي عنها، سحبتها أمها من أمامي وابتسمت لي بحرج.

* * *

وجه «هريما» طُبع على عيني فعكسته على اللوحات الرقمية بصالة الانتظار، نار شغفي للقاء أحرقت كل المَلل بروحي وكانت سلامًا عليَّ.

يا هريما! يا من منحت الحياة لي بعد أعمار من الموت، ممتنة أنا لكِ، على كل ألم، على كل أمل، على كل تجربة حملتني إلى تلك اللحظة.. لحظة الوصول/ الإقلاع/ التحرك للنقطة القادمة.

لا أشغل بالي الآن بـ«نايس» أو «ريم»، وكأن هضبتين حلَّتا عن كتفي، والبراح الذي خلفتاه وراءهما؛ أستطيع أن أطير فيه نحو احتمالات لا نهائية.

وكأني أقابلني للمرة الأولى، رأيتني كما يراني الآخرون.. وقد سعدت بتلك المعرفة -حقًّا- كثيرًا جدًّا.

حرصي على عدم التأخير عن ميعاد رحلتي، جعلني أصل قبل موعدي بساعات طويلة، إذا كنت تقرأ هذا الكلام الآن، إذًا فإن هناك

من وجده على مقعدي الخالي بالميناء الجوي، ووجد في حكايتي ما يستحق النشر، لم أكمل الكتابة لأقتل ساعات الانتظار، إنما كتبت لأثبت لنفسي أن كل هذا حدث فعلاً، على الأقل في عقلي.
إذا كنت تقرأني الآن؛ فهذا معناه أنني حدثت.

(1)

أنت لا تستطيع تجفيف المياه المتفجرة من ماسورة صرفٍ صحي بمنديلٍ ورقيّ، كان يجب أن يوقفني أحد قبل أن أقتل الجسد المستسلم أسفل، وإن لم أكن فقدت عقلي فأنا أرى شبح ابتسامة على جانب هذا الوجه الذي عذبني لأيام.
تلك هي المرة الأولى التي أصفع فيها كائنًا حيًّا، ثم أوجه له لكمة بقبضتي على الناحية الأخرى، فيقع على الأرض لأقفز فوق الجسد، وأنا أصرخ بصوت يصم أذنيّ وأناوله الضربات في كل مكان متاح أمامي، لا أرى أين تحط قبضتي، لا يهمني إذا كانت ستصل للجسد لكمة أم صفعة، الشيء المهم الوحيد وقتها، كان الحفاظ على صراخي مستمرًا بنفس إيقاع اللكمات، في النهاية أمسكت رأس الجسد حتى جذبته لأعلي، دققت به الأرض بقوة عدة مرات.
كان كل شيء قد انفجر بداخلي ولم يعد لدي القدرة أو الرغبة في السيطرة عليه...
ولكن! حتى نصل لتلك اللحظة يجب أن أعود بكم إلى البداية.

* * *

أنا سارة سلطان التي كُتب عليها الفِطام، مرة عندما قررت أمي أن تحرمني من زوجي الجيلي البارزين أسفل رقبتها، ودست الطعام في فمي عنوة وأنا اصرخ باكيةً، ومرة عندما رحلت عن الحياة وتركتني مع أبي والوحدة، قبل حتى أن يبرز لي زوجان من الجيلي، ومرة بعد أن برزا زوجا الجيلي ونضجا، قبل أن يتذوقهما أحد؛ مات أبي وتعلمت ما معنى الحياة لفتاة وحيدة في هذا العالم.

ومرة -ظننتها- عندما قررت الرحيل عن الإسكندرية مسقط رأسي، وأتجه للقاهرة. خطتي كانت دراسة اللغة الإنجليزية والبدء من جديد في مكان جديد، وخطة الكون كانت مقابلة أدهم وريم وغصة في الحلق.. ألم طازج وشوق لصدر الإسكندرية، وصدر أمي وصدر حبيب يؤنس تلك الوحدة، كانت أيام تحت أقدام القاهرة وفي غرفة ريم، وحضن «نايس»، وذراعي أدهم.

خطة الكون كانت: أيام غيرت كل حياتي الراكدة، التي لم يلق بها حجر منذ ثلاثين عامًا/ عمري.

كان يجب أن أقدم على الخطوة الأولى، حتى وإن بدت متهورة وفاشلة، فلن يفاجئك الكون إن لم تفاجئ نفسك.

وجدت نفسي جالسة أمام أدهم في هذا المقهى، أتفق معه على التفاصيل الأخيرة لتأجير المسكن المتاح في منزله، المكون من ثلاثة طوابق بحي الزمالك، لم أطمئن لتلك الصفقة إلا بعد أن أخبرني زميلي بمعهد اللغات -وهو صديق أدهم أيضًا- أن هناك فتاة أخرى تستأجر شقة بنفس المنزل، وأن أدهم -على حد قوله- محل للثقة.

الهواء في دائرة قطرها ربع متر حول جسد أدهم، ترفرف عليه راية مكتوب عليها «خطر»، هواء ساخن وفقاعات «فرمونية» تخرج مع كل نفس سيجارة يتنفسه بعد أن يحك ذقنه النابتة في حركة عصبية، يصاحبها بتضييق عينه الزرقاء حتى يحميها من خيط دخان هارب من سيجارته، جلست أمامه في المقهى واضعة يدًا تحت فخذي، وباليد الأخرى أقوم بباقي الأشياء؛ أشرب كوب عصير البرتقال، أحركها شارحة وأنا أرد على أسئلته المتتالية عني، حكيت له كل شيء عن انتقالي المتهور والسريع إلى القاهرة، الذي تركني بدون مسكن صالح للمعيشة.

بعد أن انتهى مني ومن فنجان «الاسبريسو»، وقف سريعًا والتقط سلسلة المفاتيح الملقاة على المنضدة، ودعاني بحركة من يده للذهاب حتى أعاين المسكن، مشيت بجواره صامتة حتى وصلنا للبيت وقت الغروب.

لم أعلم وقتها أكان بسبب انقباض قلبي كرهي للغروب، أم الرجل العجوز صاحب «الكشك» المجاور للبيت الذي يرمقني بريبة، أم بسبب هذا الشبح التاريخي المكون من ثلاثة أدوار يتوجها على القمة تمثال حجري ضخم لوجه سيدة تشبه الآلهة الهندية.

باب البيت خشبي وقديم، رسوماته الحديدية مليئة بخيوط العنكوب بين فراغاتها، وبعد أن عبرنا البوابة الرئيسية، التي تفصل باب البيت الداخلي عن الشارع الهادئ، كانت هناك حديقة صغيرة جدًا على يميني، وكان باب الشقة الأرضية مظلمًا، لم يَنُبه حظٌ من إضاءة المصباح المُعلق على باب الشقة التي تعلوه، فبدا -الباب- وكأنه بئر سوداء في الفم الكبير لهذا الوجه الذي يرسمه باب الشقة العلوية إثر سقوط الإضاءة الحمراء عليه، وإذا ثبَّت عينك لثوان على هذا المشهد، دون أن تحركها؛ فسيبدو أن هذا الوجه يبلتع الظلام داخل فمه ببطء وسلاسة، وكأن الظلام ثعبان أسود ضخم يزحف إلى جحره، بالدور الأرضي المظلم.

«تلك ستكون شقتك»، قالها أدهم وهو يدير المفتاح بالجحر الأسود للثعبان.

تقدمت برأسي داخل الشقة، وعلى عكس ما توقعت كانت وطأتها مريحة على نفسي، أو هكذا أوهمت عقلي لأنه -لنكن صرحاء- لم يعد أمامي حل آخر سوى التشرد، والصفقة مع أدهم كانت إقامتي مقابل ترجمة الأفلام القصيرة التي تنتجها شركته الفنية، تدريب على اللغة وإقامة مجانية.. "يا بلاش".

«هل لديك أغراض للنقل؟ يمكنني مساعدتك».

لم يكن لدي أي أغراض غيري، ولكنه لم يتخل عني ورافقني لشراء مستلزمات تجعل المسكن صالحًا آدميًا: مرتبة صغيرة، وضعتها على الأرض بالغرفة الوحيدة في المنزل؛ «بوتوجاز» كهربائي بعين واحدة؛ غلاية مياه؛ أريكة لغرفة الجلوس؛ وحلم عارٍ صغير اختبأ في ركن الغرفة، مذعورًا من مواجهة القاهرة بعوادمها، وعجلات سياراتها التي تدهس من يقف في طريقها دون رحمة.

***

علمت من أدهم أن «ريم» تسكن فوقي، وهو يسكن فوقنا في الدور الأخير، وبمجرد أن رحل نمت لساعات غير معلومة ولم أستيقظ سوى على رنين جرس الباب، فتحته لأجد «ريم» تقف أمامي، وفي يدها مُغلف بورق جرائد ولاصق شفاف، ابتسمت ابتسامة فاترة ومدت يدها إلى باللفة قائلة: **«مرحبًا بك! تلك هدية قدومك.. يمكنك زيارتي في أي وقت».**

ابتسمت وقد أراحني هذا الترحيب، التقطت الهدية منها وقبل أن أشكرها قالت: «سلام!»، وصعدت إلى شقتها، فتحت اللفة لأجد مجموعة من رزم الورق المسطر الفارغ.

تلك ليست أغرب هدية! ولكن لا داعي للتفكير في دوافع ريم الآن، عقلي منشغل بالتفكير في هدفي الباطني غير المعلن لنفسي، والذي زج بي إلى القاهرة.. «نايس».

لم يعد لدي أي وسيلة للاتصال به،بعد رحيله عن الإسكندرية، سوى بريده الإلكتروني، ولا أعلم إذا كان محتفظًا به إلى الآن.

فتحت ريم الباب بعد ما يزيد عن أربع دقات، شعرها القصير مبعثر في كل اتجاه، وكانت ترتدي رداءً من الكتان أبيضَ يشف عن جسدها بالكامل، وملطخ باللونين الأزرق والأحمر، كذلك يداها، وفي جزء من الثانية أدركت أن ريم "فنانة بوهيمية" كما يقولون،

وبدت لي الهدية مفهومة، وغالبًا وراءها هدف رمزي نحتي تجريبي لا يفهمه البشر العاديون فقراء الخيال من أمثالي.

«ادخلي». قالتها وأفسحت لي المجال، وجلست على الأرض في غرفة الجلوس التي لم تحتوِ سوى على مقعد واحد وثير، ذكَّرني بالمقعد الذي كانت جدتي لا تفارقه لسنين قبل موتها، جلستُ أنا عليه، أسندت ذراعي على ذراعه المُغطاة بغطاء قديم أخضر.

حاولت منع عيني من تفرس جسدها الظاهر من وراء الرداء الشفاف، وهي ضمت رجليها إلى صدرها، وأسندت رأسها على ركبتيها في لياقة غريبة. بدت وكأنها كائن صغير، مكون من قدمين قصيرتين برأس، تجاهلت أفكاري وسألتها عن حاسب آلى حتى أستخدمه لإرسال بريد إلكتروني. تفحصتني لثوانٍ بصمت وكأنها تتذكر شيئًا، ثم وقفت ومشت ببطء تجاه الممر المؤدي لدورة المياه، ثم دارت وعادت قاصدة غرفتها، وعندما فتحت باب الغرفة استقبلتها أشعة الشمس القادمة من النافذة وهبطت على ردائها لتصنع من جسدها «سليويت» أسود مختبئ داخل الرداء، كتمثال انتهى منه النحات للتو، يمكنك أن ترى آثار أصابعه على تحفته الفنية البضة النابضة بالحياة.

غابت فترة داخل الغرفة، ولم تجبني حين ناديتها، هممت بالرحيل لولا أنها خرجت وهي تحمل حاسبًا آليًّا صغيرًا موضوعًا في حقيبة واقية ومرفق به كل مستلزماته. وناولتني إياه وهي تقول: «إنه لكِ».

قاومت كثيرًا تلك الهدية المغرية الموفرة للأموال القليلة الحزينة في حسابي الشخصي، سمعتني في صمت ثم أكدت: «إنه لكِ.. أنا بالفعل لا أستخدمه».

***

صوت مياه البركة اقتحم أذني صمَّها لدقائق، وعبء مجاملة ريم ثقل على أنفاسي وتمنيت لو كانت ابتسمت وهي تمنحه لي حتى أشعر بودٍّ كافٍ تجاهها يسمح بقبول هذا البذخ، ولكن حاجتي لكل ما أملكه من مال بعد انتقالي للقاهرة، جعلني أشكرها وأنزل وعيني في الأرض.

جلست أمام الجهاز أنظر إلى المساحة الفارغة التي لا بد أن أملأها برسالة جديدة لـ "نايس"، منذ أن فقدت رقم هاتفه وهو لم يتصل لأعوام، أخبرته في العديد من الرسائل أني قادمة إلى القاهرة ولكنه لم يرد، وعدت نفسي أنها ستكون آخر رسالة وكتبت:

"نايس.. لا أعلم إذا كنت تقرأ رسائلي أم لا، ولكن كلِّي ثقة أنك سترد حين تقرأها.. أليس كذلك؟ ما يجعلني غاضبة أنك لم تبحث عني كما حاولت أنا.

«لقد وصلت إلى القاهرة يا نايس.. وأسكن الآن في الزمالك».

ذيلت الرسالة برقم هاتفي للمرة المئة أو أكثر، وبجواره عنوان المنزل للمرة الأولى، وكتبتها بالأسفل صغيرة خجولة:

«سأنتظرك».

أرسلتها، وظللت أضغط على زر إعادة تحميل الصفحة كل خمس دقائق.

(2)

الظلام والثلوجة التي تصفع جسدي دون أن تجمده، دون أن تعطيه تصريح الانتماء بعد سنين من الخبرة والممارسة تحت جلداتها، والمياه الثقيلة كالوحل.

يرقد وعيي كاملاً داخل بركتي، أحاول بعضلات جسدي الضئيل أن أخترق أي طريق، فتصطدم رأسي بصخرة، أرتمي عليها أتألم قليلاً من الوقت ثم أعود وأتحامل على عضلاتي وأحاول شق طريق آخر بين المياه وموجوداتها التي لا أراها.

«دوم دوم دوم دوم... تك تك... تك تك تك تك... دوم دوم».

أسير في كل الاتجاهات وعكسها، وأنا أعرف النتيجة التي لم أحصل إلا على سواها منذ أن وضعتني اليد هنا، أصطدم بصخرة، أرقد عليها، أترك نفسي وجسدي للظلام والثلج.. تخرج من جسدي سوائل دافئة، أبتلعها لتدفئني لثوان ثم أخرجها بعد القليل من الوقت.

«دوم دوم دوم دوم... تك تك... تك تك تك تك... دوم دوم».

التقطني صوت دقات الطبل القادم من سقف غرفتي، الذي أخبرني أن ريم من رواد الليل مثلي، صعدت إليها ملبية دعوتها المفتوحة، هاربة من الانتظار والخوف، أدخلتني هذه المرة غرفتها، في البداية بدت رائحة الغرفة كحزمة من النعناع الطازج، على أرض الغرفة حقيبة نوم ومجموعات كثيرة من الكتب المكومة في أكثر من نقطة بالغرفة، والتي سأعلم فيما بعد أنها تتنقل بينها كمقاعد لترى اللوحة الوحيدة المعلقة على الحائط من زوايا مختلفة، وعلى الحائط الآخر الذي تُسند إليه ظهرها قطعة قماش كبيرة معلقة كستار يحجب [illegible]ها.

[illegible]ي على كومة من الكتب وبجوارها طبلة زرقاء اللون [illegible] فيما بعد أنها وجدتها في المسكن حين استأجرته.

ظلت تكتب على ورق شبيه بهديتي، وجلست أنا على كومة كتب مقابلة لها، ما زلت ترتدي رداء الظهيرة الشفاف، وبميل نصفها العلوي على الورق الذي تكتب فيه أعطت الفرصة لصدرها أن يتحرر من الرداء قليلاً فلاحظت بياض جسدها الشديد، يبدو كقطعة جبن قليلة الملوحة، حاولت الاستقرار بعيني على أي نقطة بعيدة عن صدرها، لأجد عيني تسرح مرة أخرى إليه، وهي ما زلت منهمكة في الكتابة.

«هل تريدين أن أذهب الان؟!»، سألتها!

«انتظري» قالتها وهي تمد كتفها تمسك ركبتي دون أن تنظر إليَّ.

تنهدت ثم توجهتُ إلى اللوحة المعلقة على الحائط وتأملتها. كانت مجرد تكتلات غير مفهومة من الألوان يطغى عليها الأخضر والأزرق والأحمر، تموجات كثيرة في اتجاهات متعددة، ودوائر متداخلة، ومثلثات مقلوبة بأحجام متباينة.

اللوحة تبدو ككيان واحد ولكن ليس له معنى، لم أجد شكلاً واحدًا يرمز إلى شيء أو يثير في عقلي الباطن أي إحساس، أنا لست خبيرة في الفن التشكيلي، ولكني رأيت بعض لوحاته، وتلك ليست واحدة من ذاك الفن، هي مجرد شخبطة ألوان منظمة ومتمازجة بدقة في وحدة واحدة ليس لها أي معنى.

مسحت بعيني أرض الغرفة بحثًا عن لوحة أخرى ملفوفة أو مسنودة على أي ركن، لم يكن في الغرفة -فعلاً- سوى حقيبة النوم وأكوام الكتب، أين تضع ملابسها؟ تلك الشقة ليست إلا غرفة وصالة، والأخيرة استقبلتني بها في الظهيرة ولم يكن بها أي خزانات.

تأملت اللوحة للمرة الأخيرة بحثًا عن شيء فلم أجد، حتى شعرت بهذا الهواء الساخن على رقبتي من الخلف، التفتُّ سريعًا فوجدتها تقف خلفي مباشرة لا يفصل بيننا سوى سنتيمترات قليلة، عدت إلى

الوراء حتى التصقت بالحائط، فمدت هي كفيها ووضعتهما على وجهي، مع هذا الصمت في بيت ريم، كنت -حرفيًّا- أسمع دقات قلبي المتوترة مما تفعله.

- **«هل تعلمين أن جانبي وجهك مختلفان؟»**، قالتها وهي تقلب رأسي بين يديها كالبطيخة.

- **«ماذا تقصدين؟»**.

واصلت الحديث وهي ممسكة بوجهي بكفيها، رافعة إصبعها الأوسط لمساحة الإنسان الخاصة:

- **«من وجهة نظري.. الأشخاص المثيرون هم من لديهم جانبا وجه مختلفان، أحد جانبي وجهك ينتمي لفتاة بريئة لا تعلم عن العالم شيئًا، والثاني لفتاة مثيرة فهمت الحياة بما يكفي ليزيد من جمالها.. أي حياة منهما تعيشينها الآن؟»**.

هربت من سؤالها بسؤال محاولة تحريك شفتيَّ من بين أصابعها الممسكة بوجهي:

- **«أي جانب منهما ينتمي للفتاة البريئة؟»**.

- **«إذا نظرتِ في المرآة... ستعرفين»**.

- **«لقد نظرت للمرآة على مدار ثلاثين عامًا ولم ألاحظ ما تقولينه!»**.

- **«سترينه بعد ما أشرت لكِ»**.

قالت جملتها الأخيرة وهي تقترب أكثر بوجهها، حتى ألصقت وجهها في وجهي تتفحص لون عيني.. أرحتها من الحيرة وقلت:

- **«أزرق!»**.

- **«هل لكِ صلة قرابة بأدهم؟»**.

- **«لا!»**.

بعدما سمعت ردِّي، أقسم إنني رأيت الدم يندفع إلى وجهها، مخترقًا بشرتها البيضاء إلى قمة رأسها، في وضوح مخيف، وكأنك ترى

مسار دورتها الدموية بدون جلد. تراجعت للوراء ناظرة إليها في عدم فهم، لو أن شخصًا في منزلي الآن لاستطاع أن يسمع صوت دقات قلبي، كما كنت أسمع دقات طبول ريم، ولكن العزف انقطع تمامًا عندما ضغطت بكف واحد من يدها على وجهي كله بقوة حتى آلمت عظامي وقالت:

- **«ابقي بعيدة عن أدهم!»**.

ثم أفلتتني وعادت فوق كومة الكتب تكمل كتابتها، تأملتها برعب وأنا أتأكد بيدي أن وجهي ما زال سليمًا، لا أستطيع أن أخرج كلمةً أو نفَسًا من حلقي، ولا حتى طاوعتني قدميَّ على الحركة، انتظرت منها أن تقول أي شيء أو أي تبرير أو حتى نظرة واحدة تجاهي، ولكنها انهمكت مرة أخرى فيما تفعله وكأنني ليس لي وجود، فسحبت نفْسي ببطء وعدت إلى شقتي.

(3)

أغلقت باب الشقة بالثلاثة أقفال، وانكمشت في ركن غرفتي، وأنا أحتضن جسدي محاولة السيطرة على رعشاته المفاجأة، كيف سأعيش في منزل واحد مع هذه المعتوهة؟ لم يذكر لي أدهم أنه على علاقة بها؟!

كرهت أبي لموته في تلك اللحظة أكثر من أي وقت، كان له أن يوفر عليَّ كل هذا الكم من الخوف والتيه، وجهي يتشنج بقوة حتى بدأ رأسي يهتز، زحفت على الأرض لألتقط الحاسب الآلي، فلم أجد أي رسائل جديدة من «نايس»، أغلقت الجهاز وحررتهم من عيني مع بعض الصفعات الهستيرية للأرض بقبضتي وتلاحق أنفاسي.

وكانت خطة جيدة لنوم هادئ، أغلقت عيني واحتضنت الوحل الثقيل بذراعي، هو بارد، وقاسٍ، ولكنه مألوف، لا توجد صخرة في تلك البركة لا أعرف حجمها وقوة صدمتها وطبيعية الوجع ووقت انتهائه، لأبدأ في البحث عن رأس صخرة أصطدم بها، وتعطيني الحق في راحة مؤقتة من مطاردة اللاشيء، أوقات أشعر بحدسي وخبرتي بكل شبر في البركة أن هناك صخرة اقتربت عن يميني، فأسرع تجاهها ملقية نفسي عليها طالبة وقتًا مستقطعًا في لعبة بلا أهداف.

«دوم.. دوم.. دوم!».

تلك المرة كانت الدقات على باب الشقة، رأيت ظل رجل من خلف الباب ففتحت سريعًا وأنا ممتنه، ظنًّا مني أنه أدهم.. ولكنه كان «نايس!».

أتتذكرون ونحن صغار كيف كان وقع آية: "يُبدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ" على قلوبنا الصغيرة للمرة الأولى، تلك الرحمة الواسعة التي تشملك لدقائق وكأن رياحًا باردة أطفأت نار أحشائك، النار

التي ظل جسدك يدور حولها لأعمار طويلة، هكذا كان إحساسي عندما رأيته، لم يتغير فيه شيء سوى جسده الذي اعتنى به جيدًا، كل ألم سقط إلى أصابع قدمي في لحظة واحدة، كل ثقل على كتفي لم أعد أشعر به، كنت خفيفة وطرت شبرين واحتضنته.

أخبرني أن رسالتي وصلته وهو في «بروفة» بمسرح قريب من مكان سكني، وشعر أنها علامة لضرورة الزيارة. لم أسأله عن رسائلي القديمة على الرغم من الهاتف الذكي في يده، والذي يجعله على اتصال دائم بكل رسائله، لم أسأله أيضًا إذا كانت هناك امرأة في حياته أم لا، لم أسأل عن أي شيء ربما لا تعجبني إجابته، رضيت بما فاض به علي من حبه للمسرح رغم أنه لا يحقق الشهرة التي كان يحلم بها. ظللت أتأمله وهو يحكي وأنا أخشى أن يكون هذا مجرد حلم أو يكون هذا واقع ويرحل بعد قليل.. فأفتقده، تخيلت نفسي أحتضن بيدي أقدامه وهو ينوي الرحيل وأنا على الأرض أستجدي بقاءه.

***

أحمد عبد اللطيف! صغارًا درسنا وهو في حصة اللغة الإنجليزية، اسمه الثاني «نايس»، ومن يومها أناديه به، أغضبه في البداية، وتعود عليه مع الوقت، ثم أصبح يشتاق إليه بعد –أو هكذا أتمنى- مغادرته الإسكندرية ليبحث عن حلمه.

«نايس» هو رائحة «السندوتشات» المتبقية في حقيبة المدرسة بعد يوم دراسي طويل، المدرسة التي أصبحت صغيرة جدًا كمكعبات غير مؤذية، رائحة البحر –أنت يا أحمد- التي زارت صدري في زحام القاهرة، "نايس" هو الشيء الوحيد الذي يثبت أنني كنت، قبل أن أكون هنا، عينه العسلية التي لا يستطيع أن يجعلني أحدق بها وهو يخبرني شيئًا مخجلاً عن نفسه كما يفعل الآن، ابتسامته الخجولة التي لا تتجلى إلا لي وهو يقص لي مغامرات غريبة

عاشها فترة غيابنا، وكأنه يخشى تشويه صورة الطفل الذي قاسمني طعامه وبراءته واحلامه الصغيرة، ولكنه في نفس الوقت يريد من يلقي عليه عبء تشوه أصابه لا يقدر على حمله وحده، ولم يستطع التعايش معه في سلام، كان يحتاج شخصًا يعرف عنه كل شيء ويظل يراه طفلاً، وكنت أنا وحدي التي أصلح لهذه المهمة، أخذني من يدي لأزور كل مناطقه السوداء، ومهما أخبرني نايس عن نفسه، سيظل هو الفتى الذي بكى أمام فصل دراسي كامل عندما طردني «الأستاذ» من الفصل.

أنا أحبك يا «نايس» ولا أريد شيئًا منك في المقابل، وجودك في الحياة -وأنت جالس بجواري أو في المريخ- هو كل ما أريد، النفس الذي ستخرجه من صدرك، سيعرف طريقه إلي، ليمدني بالحياة، فعش يا نايس حتى أحيا.

عندما ذكر موعد تدريبه في الصباح؛ عرضت عليه البقاء الليلة، خاصة بعد أن علمت أن منزله في إحدى المدن الجديدة على أطراف القاهرة، لم يخطر أدهم لي في بال وقتها ولا ريم ولا رد فعلهما إذا علموا أن لدي زائر مبيت في أول ليلة لي في المسكن.

جلسنا أنا ونايس نحكي لساعات، ولكن عندما دق جرس الباب ثلاث دقات متتالية متوترة، تذكرت أدهم ومغامرتي الصغيرة مع ريم، واتجهت للباب واضعة يدي على قلبي، وتحرك نايس بتلقائية إلى المطبخ وهو يهز رأسه لي بأنه يتفهم الوضع، وجدت أدهم غاضبًا، توقفت عضلة قلبي عن الضخ حتى قال برجاء:

- «آسف على إزعاجك.. هناك مشكلة حدثت مع ريم.. أحتاج مساعدتك».

استنشقت بعض الهواء لأسمح لقلبي بالعمل مرة أخرى، وسألته:

- «خير؟».

«يجب أن تصعدي معي لشقتها». قالها وهو بالفعل يخطو على درجات السلم صاعدًا، أخبرت نايس أن الأمر قد يطول وأنه عليه أن ينام ولا ينتظرني لأن ميعاده سيبدأ بعد ساعات قليلة... وأسرعت صاعدة لشقة ريم.

كانت ريم تقف بجوار باب شقتها، ملتصقه بالحائط بجسدها العاري وذراعيها المرفوعتين لأعلى، وكأنها طفلة متعلقة برقبة أبيها، وأعطت لنا ظهرها الذي كشف عن قوامها المتناسق، ولكن ما لفت نظري هذا الجرح الطولي بظهرها على طول العمود الفقري وكأنه جرح لم يعالج علاجًا لائقًا، فترك أثرًا منفرًا في نفسي، ومع ذلك نما فضول في عقلي عن طبيعة ملمس هذا الجرح.

نظرت لأدهم متسائلة وأنا أداري خجلي وكأنني عارية مثل ريم، فأشار لي بيده أنه لا يفهم أيضًا ثم توجه إلى الباب وهو يقول:

- **«أرجوك دعيها ترتدي أي شيء وأدخليها غرفتها.. إنها لا تستجيب لي وتريد الخروج للشارع بهذا الشكل»**. وأغلق الباب وراءه بقوة.

وددت أن أحضر «نايس» ليساعدني في تلك الأزمة، ولكن عقلي أخبرني أنني لا أريد أن أقحم نايس في أي لقاء مع ريم حتى وهي مرتدية ملابسها كاملة.

اقتربت منها ووضعت يدي على كتفها:

- **«ريم.. هل أنت بخير؟»**.

ردت وهي مغمضة عينيها:

- **«نعم.. الحائط بارد»**.
- **«ماذا؟؟»**.

فتحت عينيها ونظرت لي لثوان ثم سألتني:

- **« هل ذهب أدهم؟»**.
- **«نعم... هيا إلى غرفتك!»**

هزت رأسها موافقة، وابتعدت عن الحائط واضعة ذراعها في ذراعي.
لا تبدو مخيفة الآن بكل هذا الإرهاق والهالات السوداء حول عينيها، كشخص كان يصارع ثورًا، أسندتها إلى غرفتها متحاشية لمس أي جزء محظور من جسدها، جلست على حقيبة النوم الخاصة بها وهي تربع رجليها فظهر ما بين فخذيها، أدرت وجهي بحرج وسألت:
- **«أين تحتفظين بملابسك؟».**
- **«في دورة المياه».**
توجهت إلى هناك فكان الهواء معبقًا بدخان كثيف دافئ، وتناثرت حبات مياه على حائط الحمام السيراميكي، مسحت الحمام بعيني مخترقة الدخان فوجدت وعاء بلاستيكيًا به مجموعة من الملابس الداخلية وملابس بيت وملابس خروج في مزيج سريالي فني أروع من اللوحة المعلقة في غرفتها، ولمحت بطرف عيني في قاع الوعاء مظروفًا بنيًا كبيرًا ممتلئًا وكأنه انتهى من وجبة ثقيلة الآن، التقطت النسخة الخضراء من الرداء التي كانت ترتديه في الظهيرة، اقتربت بأنفي منه فوجدته نظيفًا، عدت إليها في الغرفة فوجدتها تقف أمام اللوحة، اقتربت منها وبدأت في كسوتها بالرداء وهي معلقة عينها على اللوحة كطفل يرفض إشاحة عينه عن «الكارتون» بينما تضع أمه الملابس على جسده غصبًا.
الأخضر أظهر جمالها رغم كل ما في وجهها من معاناة.
- **«سأذهب الان ياريم.. عليك أن تنامي قليلاً».**
لم ترد عليَّ فهممت بالرحيل، ولكنها استوقفتني قائلة:
- **«هل يحدث هذا فعلاً؟!».**
- **«ماذا تقصدين يا ريم؟».**
- **«هل كل هذا يحدث الآن فعلاً أم أنه مجرد حلم؟».**

رحمتك يا الله.. قلتها في سري، ثم اقتربت وقلت لها:

- **«لا يا ريم إنه يحدث بالفعل.. ولكن عليك أن تنامي.. ربما في الصباح تتذكرين كل شيء».**

- **«هل يمكنك أن تثبتي هذا؟».**

- **«هه؟!».**

- **«هل يمكن إثبات أن هذا يحدث بالفعل.. وأنه ليس مجرد خيال أو حلم!؟».**

قرصتها من ذراعها بغلٍ وقلت:

- **«الألم يثبت لك أنك لا تحلمين».**

بدت خطوتي غير موفقة عندما لم تبدل التعبير «الزيرو» على وجهها إثر القرصة.

وردت قائلة:

- **«الالم يثبت أننا موجودون ولكنه لا يثبت مكان وجودنا».**

عقدت حاجبي تصريحًا بعدم الفهم ولا الرغبة في الاستماع للشرح من الأساس، وهي لم تختم بالتوضيح، وخلعت الرداء مرة أخرى في حركة واحدة، وتركته يسقط من يدها على الأرض متوجهة إلى حقيبة النوم وجلست فوقها، التقطت الرداء واقتربت منها محاولة أن أدخلها فيه مرة أخرى ولكنها أمسكت كفي فجأة ووضعته بين نهديها، وكأن كفي لمس مكواة فُصلت عن الكهرباء للتو، درجة الجرارة تلك لا يتحملها جسد إنسان، بحركة تلقائية سحبت يدي للوراء وأنا أنظر إليها بانزعاج ولكنها لم تفلتها، ثم ملأت عينيها دموع لم تتركها تسقط.

«قلبي يحترق للرحيل... للبداية» قالتها بهمس وكأنها تحدث نفسها.

ثم ضمت ذراعي كاملةً بحضنها وتكومت فوق حقيبة النوم كالجنين، مددت جسدي للأمام لأترك ذراعي لها وقد بدأ باطن كفي

يعتاد حرارة جسدها، وعندما نامت سحبتُ يدي ببطء ودثرتها بالغطاء الملقى بجوار حقيبة النوم ورحلت.
لم يعد لدي شك في تلك اللحظة أن ريم مريضة عقلية، ولكنها لا تبدو مؤذية، فجأة تحول خوفي منها إلى شفقة، عدت إلى شقتي فوجدت «نايس» مستغرقًا في النوم على الأريكة، أغلقت الباب بهدوء ووضعت عليه غطاءً خفيفًا ثم دخلت إلى غرفتي أسترجع احداث اليوم، ولكن الخيوط كلها تهرب مني.
أنا سارة التي كانت تمكث في البيت شهورًا، لا ترى أحدًا ولا تكلم أحدًا، كل هذه الأحداث كثيرة لا يقدر عقلي على هضمها، هنا لمحتُ الأوراق التي أهدتني ريم إياها، أخرجت قلمًا من حقيبتي، وبدأت في تدوين الأحداث كلها، بدأت أكتب.. حتى أفهم.

(4)

بعد حكاية عم "جبار" –حارس البناية الثرثار وصاحب الكشك والسمسار و«بتاع كله»- الشيقة والتي أغرقت وجهي بلعابه، عن الفتاة التي كانت تقطن في الشقة قبل ريم، والتي قفزت من النافذة قتيلة في حديقة منزلنا، لم يفهم عم جبار أن ما يحكيه بغموضه المفتعل؛ لن يخيفني، إذا كان هذا غرضه.

إذن هناك فتاة غبية فقدت الرغبة في الحياة وقفزت من شرفة غرفتها، "مال أمي أنا بكل هذا"، ثم إن عفاريتي أقسى بكثير من عفريت فتاة قلبها كان أضعف من تحمُّل قسوة الحياة، اطمئن يا عم جبار! إذا ظهر لي عفريت الفتاة المنتحرة سأسلط عليه شبح السيدة العجوز، ربما يرحلا عني سويًا.

أخذت منه السجائر وأنا أهز رأسي متحاشية بعيني يده التي تزحف إلى ما بين فخذيه، ممارسًا هوايته المفضلة الغريبة في العبث بأشيائه، وصعدت لشقة أدهم، بهدوء شديد حتى لا تلاحظني ريم.

استقبلني بوجه ناعس وجسد نصف عارٍ.. ما مشكلة هؤلاء القوم مع الملابس!

صوت كالضفدع أخبرني أن أدخل، في حين ذهب هو إلى غرفته وارتدى بنطالاً فقط وترك نصفه العلوي كما هو، لا إراديًا تأملت كل عضلة في صدره، عضلات دقيقة ومتنقة وجسد أملس خمري، كالرجال على أغلفة الروايات الغرامية الرخيصة.

الشقة مكونة من غرفة وصالة كبيرة مثل شقتي أنا وريم، لم أدخل غرفته، ولكن غرفة الجلوس التي يضع فيها شاشة عرض بيضاء موجه إليها «بريجيكتور» صغير، جدرانها مليئة بـ«أفيشات» أفلام أجنبية وعربية، معظمها من السينما الكلاسيكية، وصور فوتوغرافية فنية لفتيات عاريات لا يبدو من أجسادهن إلا سلويت،

مما جعلني أتذكر جسد ريم عندما نحتته أشعة الشمس من وراء ثيابها الفضفاضة.
أمسكت بعلبة العصير التي ناولها لي أدهم بينما أفرغ هو زجاجة مياهفي حلقه دفعة واحدة، وفتح الجديدة وأسندها على فخذه وكأنة يستعد لجولة جديدة.
«ما مشكلة ريم يا أدهم؟!» محاولة تركيز عيني على وجهه.
فرك وجهه بكفيه ثم فرد شعره، وقام بعصقه مرة أخرى كذيل حصان على قمة رأسه، ونظر للفراغ وعلى وجهه شبح ابتسامة، ثم بدأ يحكي لي وكأنه كان ينتظر أن يلقي عليه أحد هذا السؤال منذ زمن:
«ريم!! ريم لها رحيق، ينبعث من بين مسامها، يسير بسلاسة إلى أنفك، ثم بضربة نمر يصل إلى خلايا مخك، يسيطر عليها وعليك، لتصبح منومًا مغناطسيًا.. تعي كل ما تفعله، ولكنك لا تملك القدرة على التحكم، هي تعطيك حق قدرك، مع نظرات انبهار مفتعلة مجاملة، تضطر أن تصدقها حتى لا تحرج نفسك، تسمعك للنهاية بإنصات واهتمام وأنت تحاول مبلولاً أن تبهرها، ثم تعطيك نظرة تقول "محاولة تستحق الاحترام.. ولكنه لا يزال غير كافٍ"، ثم تضغط بيدها على ذراعك وهي تقترب منك، وتنظر لك، ممررة رسالة جسدية واضحة تقول: "ولكني لا أمانع أن تحاول مرة أخرى"... لم أشعر أنني ضعيف أمام فتاة مثلها أبدًا!».
«هل تسمعون صوت الكامنجات في الخلفية»، قلتها لنفسي وتجاهلت أداءه الدرامي، ثم سألته: - **«لماذا لم تخبرني عن ارتباطكما؟ إنها تشعر بالغيرة عليك».**
ضحك أدهم بقوة وقال: **«غيرة! ما الذي جعلك تظنين ذلك؟».**
- «عندما كنت مع ريم في شقتها.. حذرتني أن من الاقتراب منك».

تبدلت ملامح أدهم وشعرت أنه يداري غضبًا:
- «أنا وريم لسنا في علاقة، وهذا هو قرارها.. طلبت منها كثيرًا أن تترك شقتها لتعيش معي ولكنها رفضت».
- «لماذا؟!»، سألته.
ابتسم بمرارة وسألني:
- «من وجهة نظرك.. ما السبب الذي يجعل فتاة ترفض أن تعيش مع رجل طلب منها ذلك؟».
- «هل تحبها؟».
- «جدًا».
- «كيف تعرفت عليها؟».
أفرغ زجاجة المياه كاملة في جوفه، ورفع قدميه على المقعد، فأدركت أن الجلسة ستطول، خاصة أنه سرح في الفراغ مرة أخرى وبدأ صوت الكمنجة يتسرب إلى أذني مرة أخرى، واتخذ نفس الوضعية الدرامية الأولى، حاولت أن أحتفظ بتركيزي معه، ولكن «نايس» الذي رحل إلى عمله دون أن يترك لي رقم هاتفه، كان يُطل برأسه من حين لآخر وسط حكاية أدهم.
«دائما ما كان ينصحني أبي قبل موته ألا أرص دبوس الحشيش فوق سجادة غامقة أو مزركشة، *"فإن سقط يا أدهم سيطلع ديك أمك حتى تجده"*، كما حذرني من تدخين الدبوس الذي أجد صعوبة في رصه بعد حرق الكثير من السجائر والخوابير *"لأنك يا أدهم إذا شربته ستفقد السيطرة على نفسك"* ».
«ونعم التربية»، قلتها في سري.
«كان أبي رجلاً حكيمًا ولم يحرمني من نصائحه، ومع ذلك؛ مرة أسبوعيًا تجديني منكفئًا على الأرض في وضع الحبو، باحثًا عن الدبوس الذي سقط مني على تلك السجادة البنية».
هززت رأسي بمعنى: **«ليس هذا موضوعنا.. انجز».**

فأكمل كلامه:

«في اليوم الأول الذي قابلتها فيه، وقفنا أنا وهي فوق هذه السجادة نتجاذب أطراف الرغبة وأنفاس الكحول، كنت قد دخنت لتوي الدبوس السابع، الذي ظللت أحاول تثبيته في السيجارة ما يقرب من نصف ساعة، وخرجت من الحمام بعد أن امتلأ صدري بدخانه، لا ألوي على شيء، أطفئ دخان صدري بماء التكيلا ثم أشعله مرة أخرى بسيجارة يناولها لي شخص لا أعرفه في حفل أقمتها لسببٍ لا أذكره، حتى دخلت ريم من الباب مع أحد أصدقائي لتنضم للحفل، منذ أن عبرت هي الباب وانضمت إلى الحفل، أصبحت مركز الرؤية، دارت الرؤوس حولها في محاولة لاكتشاف ما المميز فيها، فلا يجدون أي شيء غريب أو جديد، ولكن من الصعب التوقف عن ملاحظتها».

هززت رأسي موافقة على وصفه لريم، مما شجعه أن يكمل.

«أداؤها المتحمس المفاجئ لشيء ما، لا يستمر إلا للحظات تشرق فيها الغرفة بأكملها، فتجد الآخرين في انتظار أي شيء آخر يبهرها، حتى تشرق الغرفة مرة أخرى، انجذاب مرضي مؤقت أصاب غرفة جلوسي بكامل حضورها تجاه "ريم"، ترجمه الرجال في عبارات تحرش واضحة، والفتيات في نظرات الكره، متحاشيات الهواجس الجنسية التي أصابتهن تجاهها، وتعاملت هي مع كل تلك الطاقة بذكاء شديد، لو لم تبت هذه الفتاة بفراشي الليلة، سأقتل نفسي، أقسمت لنفسي بذلك يومها، ولم أخذلني...».

- **«ألم تخبرني أنكما لستما على علاقة؟!»**، سألت مستفسرة.

- **«هذا حقيقي.. أحيانا فقط نتشارك الفراش... أنت تعلمين هذا يحدث أحيانا بين الأصدقاء».**

- **« لا.. لا أعلم.. المهم.. أكمل».**

«ما زلت حتى الآن، أجد في فمي طعم جسد ريم الممزوج بالهواء الربيعي القادم من الشرفة، أعيش هذا اليوم للأبد، في بدايته أودع أصدقائي وعملي، وفي الليل أنتقل إلى عالم موازٍ، يجعلك لا تفكر في أي شيء سوى ما تراه عيناك، ويشعر به جسدك، عالم قادر على منحك السعادة طالما احتفظت بريم إلى جوارك. ولكن بعد أن يمر اليوم تكتشف، أن ريم ليس هناك أي شيء يشعرها بالسعادة، حتى أنت، حتى أنا يا "سارة" لم أستطع أن أشعرها بالامتلاء، دائمًا أشعر أمامها كما كنت أشعر أمام أمي، تجعلني أكره نفسي، ولا أتوقف عن حبها».

في تلك اللحظة ظهرت دمعة في عين أدهم حاول أن يداريها، تمنيت للحظة أن تكون تلك الدمعة من أجلي أنا، وتكون في عين «نايس».

واصل أدهم حديثه وقد بدأ ألم حقيقي يرتسم على وجهه، والكمنجات سلمت النوتة لناي حزين.

«نظرة الخواء التي أراها في عينيها بعد أن تنتهي مني، تترك شرخًا في داخلي، شرخ لم تتركه فتاة من قبلها، كل الفتيات اللاتي ضاجعتهن كنت أرى في أعينهن وهن يلتصقن بصدري العاري؛ تساؤلاً عما سأفعله بعد ذلك، ولكن الآن، مع ريم، لا أرى في عينيها سوى نظرة "ماذا سأفعل الآن بعد أن انتهيت من أدهم"، مهما فعلت لـ"ريم" يظل إحساسي أنها ينقصها شيء أكبر مني، ومن قدراتي، هناك فجوة في روحها لا أستطيع أن املأها، وعندما أواجهها بذلك تجيب بصدق مستفز: "إنها ليست مشكلتك يا أدهم"! مشكلة من يا "سارة"؟! ما الإشكال الذي ينقب في روحها تاركًا وراءه فجوات لا أستطيع أن أصلحها؟».

ابتسمت له وأنا أقول: «إذن أنت حقًا لا تعرف ما مشكلة ريم؟».

- «بل لم أقترب حتى من الإجابة!».

واستمر في الحديث وكأنه وجد فريسة، مثبتًا لي نظريتي عن الحديث مع الغرباء بكونه أسهل كثيرًا من الحديث مع الأقرب لقلوبنا، لهذا السبب فقط –من وجهة نظري- تم اختراع مهنة الطب النفسي.

«أنهكتني ريم. تذكرني بالجماهير التي تشاهد أفلامي ولا يعجبهم شيئًا، ويتحدثون وكأنهم درسوا السينما من نعومة أظفارهم *"ألا ترى يا أدهم أن هذا "الشوت" مبالغ فيه"*، *"لماذا لم تقم بإتقان هذا "الكادر".. "الإيقاع واقع"*، في لحظة يتحولون إلى نقاد مخضرمين يتحدثون عن أشياء لا يفهمونها، يرددون المصطلحات التي سمعوها في البرامج كالببغاء، تلك النوعية من الجمهور تجعلني أفتقد جماهير زمن الفن الجميل، عندما كان ينبهر الواحد منهم ويقفز من مقعده إذا رأى اثنين من إسماعيل ياسين يقفان بجوار بعضهما على شاشة السينما أمامه».

ابتسمت له مشجعة حتى يكمل حديثه.

«ولنفس السبب جعلتني ريم أفتقد الفتيات اللاتي كنَّ ينبهرن عندما أطلعهن على وضع جنسي جديد، افتقدت نظرة الرضا والامتنان في عين فتاة عند وصولها للأورجازم، فـ"ريم" تغمض عينيها بعدها، لا أرى ما تشعر به ولم أجرؤ على السؤال، لأنها لن تخجل ولن تجاملني ويمكنها أن تحطمني ببساطة شديدة ثم تقول: "إنها ليست مشكلتك يا أدهم!"».

عندما أدركت أنه لا يخجل من إطلاعي على خصوصياتهما سألته:

- «بالأمس ماذا حدث؟ هل كنتم سويًا.. أقصد هل.. أنت تفهم قصدي».

- «نعم كنا في غرفتها وأقسم لك لم يحدث شيء جديد أو غريب، ولكنها فجأة ابتعدت عني وخرجت عارية إلى الصالة، وعندما خرجت وراءها وجدتها تتوجه للباب حتى تخرج من المنزل، ولم

تستجب لي في محاولاتي لإدخالها الغرفة مرة أخرى وكأنها لا تسمعني.. فتوجهت إلى الحائط ووقفت كما رأيتِها.. ما رأيك أنتِ؟».

- «لا أعلم يا أدهم.. ربما تكون متقلّبة المزاج بسبب لوحة جديدة تريد أن ترسمها.. ألا يمر الرسامون بتلك اللحظات كباقي الفنانين؟».

- «رسامون.. من تقصدين؟».

- «ريم!».

ابتسم أدهم وقال:

- «ريم ليست رسامة! تلك اللوحة في غرفتها هي الشيء الوحيد الذي ترسمه ولا أعلم ما هو أساسًا».

- «لم أفهمه أيضًا! ماذا تعمل إذن؟».

- «هي درست الأدب الإنجليزي ولكنها لا تعمل، ريم لديها الكثير من المال ليست في حاجة إلى عمل، والدها يعمل ويقيم في إسبانيا كما أنها ورثت عن أمها ثروة كبيرة».

- «حقًّا!!.. ريم!!»، قلتها وأنا أتذكر وعاء الغسيل.

في تلك اللحظة تأكدت أن ريم لا تدَّعي التفرد أو المرض العقلي، من لديه كل هذه الأموال ويعيش بهذا الشكل البوهيمي.. فهو يعاني من مشكلة.

هممت بالرحيل ولكنه استوقفني عند الباب قائلاً:

- «سارة! أنا مضطر للسفر لأيام قليلة.. أرجوكِ أن..».

- «لا تقلق.. سأعتني بها»، قاطعته مطمئنة.

رحلت وأنا أشعر بالحسرة على نفسي، أنا لم أمارس جنوني على أي شخص في حياتي من قبل، ومع ذلك لم أجد الشخص الذي يحبني إلى هذا الحد، هل من الممكن أن يكون هذا هو السبب؟! هل

كان يجب أن أكون بقسوة ريم وجمودها حتى يحبني رجل بهذا الجنون الذي رأيته في عين وكلام أدهم عن ريم؟!

(5)

قبل وصولي للقاهرة، في يوم مرير، قررت فجأة –ودون سبب- أن أنظر إلى حياتي من بعيد، فأدركت أنني أحيا كابوسًا، بدأ العد التنازلي للأربعين، وأنا معتزلة الأصدقاء وصخب الحياة لخمسة أعوام حتى أصبح خيال تلك الأيام ماضيًا سحيقًا، اختليت بالأفلام والموسيقى والكتب والهواجس في غرفتي، حتى عملي أنجزته من غرفتي، تلك الغرفة التي تحولت مع الوقت إلى بركة ألقيت فيها أحلامي كلها، بركة مع الوقت تتضخم يومًا بعد يوم حتى أصبحت في حجم كوكب، وفي صغر فص مخي الخلفي، فسكنتُ فيها، وسكنتْ فيّ.

تلك المنطقة الرمادية التي وقفتُ فيها، أنا لست تلك الفتاة التي خاضت تجربة الاستقلال الكاملة عن أهلها، بل خرجت إلى الحياة أضع في كل حي طوبة دون أن أعلو بسور واحد أختبئ خلفه من أنياب الفشل، ولا كنت فتاة العائلة المدللة التي تحضر جميع المناسبات العقيمة وتقابل الأزواج المحتملين بناء على اختيار أبيها، ولكن أيضًا لم أختَرْ لنفسي اختيارًا سليمًا، وبالتالي لم أحتفظ بعلاقة واحدة ناجحة، وظل الوصول إلى «نايس» هو الأمل الوحيد الذي أتكئ عليه.

سؤال: «ما الذي أفعله بحياتي؟!»، ظل ينهشني، وجثم على أنفاسي. حالات الذعر بدأت تزورني واحدة تلو الأخرى، وبدأت رؤى السيدة العجوز التي تشبهني، تجلس في ركن الغرفة ترمقني في صمت، أركض كثيرًا في الطرقات التي نحتها الوقت على بشرة وجهها المجعَّد، أركض حتى تنقطع أنفاسي، فأهرب من عفاريتي إلى شوارع المدينة، ولكن في الخارج أواجه عفاريت أغرب وأقسى من ظلام بركتي وعجوز الغرفة، في تلك اللحظة بالذات

أدركت أنني بالفعل وحيدة لا يؤنسني سوى هواجس أخشاها ولكني تعودت عليها، فعزمت أمري وحزمت حقائبي ورحلت.
الخطوة الأولى خارج المنزل كانت الأثقل والأقسى، ولكن الثانية كانت أخف، ثم الثالثة، ثم الرابعة والخامسة حتى شعرت أن جسدي يطفو إلى السماء، ولكن سريعًا ما ارتطم جسدي كاملاً ليتكسر عظمة عظمة تحت أقدام استقبال القاهرة القاسي، وجوه خالية من الحياة يسيل لعاب الشهوة على ذقونها، تحدق في الأجهزة المحمولة بأعين السمك، الأيدي التي تحاول الوصول لجسدي في الزحام لتسرق ما خف وزنه وغلا ثمنه.
في الإسكندرية كنت أهرب من وجوه البشر مولية وجهي للبحر، وهواؤه كان يدخل إلى صدري ينعشه، يرسل إشارات إلى عقلي بأن العالم محتمل والآمال ربما تتحقق، ولكن سيف هواء القاهرة عندما شق صدري، أخبرني أن الأمل هنا يحتاج عزيمةً. نزعت الإسكندرية صدرها من حلقي وتركتني للقاهرة لتفطمني، وبدأت رحلتي في البحث عن مكان للسكن، حتى وجدت في دهاليز العجوزة تلك الغرفة الصغيرة، التي يطلقون عليها "ستوديو" من باب التجميل، ولكنها كانت سيئة للغاية، غير مريحة بالمرة، بها شباك واحد وأربع ستائر! باهظة الثمن، ولم أصمد فيها سوى أسبوعين، وانتقلت لأحد الفنادق حتى أجد حلاً آخر، وهنا ظهر الحل على يد أشرف، زميلي في المعهد البريطاني.
أشرف كان الشخص الوحيد في المعهد الذي لم أستطع أن أبدأ معه حوارًا واحدًا ناجحًا، فمنذ أن وطأت قدمي القاهرة وأنا أشعر بوحدة شديدة، ولذلك سعيت لأكبر قدر من المعارف في كل مكان أدخله، وخاصة في المعهد حيث لم يعد هناك شخص لا يعرفني، كسر هذا داخلي إحساس الغربة بعض الشيء، أنتم تعلمون! وكأن أصبح لي بيت آخر يتجمع به البشر، إذا غبت عنه سيسألون عني، إذا قتلني

أي شخص وأنا راقدة على فراشي في هذا الفندق الصغير المخيف، لن يفلت بفعلته أبدًا!
ولكن ظل أشرف مستعصمًا، أو خجولاً، لم أستطع التمييز، وحين خرج عن صمته تأكدت أنه مجرد زاهد في الحياة، كان يرد باقتضاب على كل سؤال سألته له، لأنه بالفعل ليس لديه ما يقوله، وإذا وجد شيئًا فلن يجد الطاقة لقوله، كان مجرد جثة أخرى التهمها زومبي الملل.
ولكن هذا لم يمنعه، من يأتي لي في هذا اليوم، ويسألني بنفس الهدوء البطيء:
- **«كنت تبحثين عن مكان تقيمين به قريب من المعهد.. أليس كذلك؟!»**.
هززت رأسي أن «نعم».
- **«اتصلي بهذا الرقم، سيخبرك بالتفاصيل.. سلام!»**، قالها وناولني ورقة ورحل قبل أن أقرأها.
تأملت الورقة، وجدت مكتوبًا بها بخط كبير «أدهم» وأسفلها رقم هاتفه المحمول، هكذا وجدت نفسي جالسة أمام أدهم في هذا المقهى ذاك اليوم.. ليأخذني إلى المنزل.. إلى ريم.

***

بعد أن تركت أدهم وعدت إلى شقتي، استقبلتني البركة بذراعيها، استسلمت لها وألقيت نفسي فيها، ظللت أسبح وأنا أتساءل عن مشكلتي أنا وليس مشكلة ريم!
رغمًا عني شعرت بالغيرة وأنا أرى كل هذا العشق في عين أدهم لها، لم أستطع المرور عليها بعد حواري مع أدهم، وأنا بقلبي كل هذا الغضب منها دون أن ترتكب في حقي شيئًا، فقط لكونها مرغوبة لهذا الحد من رجل أنا لا أريده أساسًا.

لماذا ننجذب للمعتلين نفسيًّا، أو بمعنى أصح المصرحين باعتلالهم النفسي!؟
أنا أطارد نايس ومناطقه السوداء، وأدهم يطارد ريم بمناطقها الجحيمية، طوال سنين عمري وأنا أخفي جنوني عمن أحبهم رغبةً في الحفاظ عليهم، ولكن ما يبدو لي الآن أن بخَّ سمومك فيمن تحب، يبدو وكأنه أول خطوة في طريق امتلاكك لهم.
قررت أن ألقي على نايس جميع سمومي ما إن أراه مرة أخرى، سآخذه من يده وأمر به على أحلك مناطق في نفسي سوادًا، وسأسلط عليه السيدة العجوز تنهشه في قلبه كما تنهش أحلامي كل ليلة بصمتها المستفز.
ولكن.. أين نايس من الأساس؟!
لم يترك لي رسالة قبل رحيله برقم هاتفه أو ميعاد عودته، لا أجرؤ على إرسال رسالة إلكترونية له، شيء ما يخبرني أن عليَّ الانتظار رغم شعور الوحشة القاتل.
ومنذ سنين.. وللمرة الأولى بدأ جسدي الضئيل يهتز داخل البركة مختنقًا باحثًا عن هواء.
لأول مرة أريد الخروج من هذه البركة، مهما كان الخارج مجهولاً، فأنا أريد هواءً، لا أستطيع التنفس في البركة بعد الآن، أيامي أصبحت معدودة بها إن لم أجد مخرجًا.
الوحل تكدس في صدري وعلى جلدي في طبقات أصبحت جزءًا مني، وتكوم فوقها أعوامًا من اليأس واللامبالاة، وأصبح جسدي الصغير جدًّا؛ ثقيلاً جدًّا لا يتحمل عبء المغامرة.. هنا اصطدم رأسي بإحدى صخور البركة، قبلتها وأنا أشكرها على الألم الذي سيمنحني بعض وقت مستقطع؛ فأغلقت عيني ونمت.

(6)

كانت ريم تقف ملتصقة بالحائط كما رأيتها من قبل على حائط منزلها، الرؤية كانت مشوشة ولكني رأيت بوضوح الجرحَ الطولي الذي يزين عمودها الفقري، في هذه المرة تجرأت واقتربت.. لمسته بأطراف أصابعي.

كان أملس خاليًا من المسام.. اقشعرَّ جسدي ولكني أكملت، تحسسته بطرف أصبعي أكثر من مرة بداية من ظهرها وحتى رأسها مستمتعة بالنفور الذي يتركه في نفسي، مررت عليه ببطء وهي لم تمنعني، ولكن فجأة انشق الجرح إلى نصفين، وطلَّ من الفتحة الضيقة التي صنعها رأس ثعبان فاتحًا فمه ومستعدًا للهجوم، بخَّ سمه في وجهي... انتفضتُ مستيقظةً، غارقة في عرقي على صوت المنبه.

***

استعذتُ بالله من شيطان ريم الرجيم، وارتديت ملابسي، وقبل أن أعبر البوابة الحديد للبيت وأتجه إلى المعهد، نغزني الذنب في كتفي فعدت صاعدة لشقة ريم.

بدا وجهها مشرقًا هذه المرة، وجنتاها حمراوان تضجان بالحياة، تبروز عيناها بكحل أزرق فاتح، وترتدي رداء قطنيًّا قصيرًا أسود، ابتسمت -للمرة الأولى- لي وقالت: **«تعالي!»**.

بدت كأنها أنسانة أخرى غير التي كانت تعاني بالأمس، حتى أنني شعرت بالسخف وأنا أسألها:

- **«هل أنت بخير الآن؟»**.

هزت رأسها أنه **«نعم»**، وجلست على المقعد الأخضر وهي تلتقط طبقًا من الأرض وبدأت في الأكل، كان الطبق يبدو كطبق سلاطة

به الكثير من الجرجير فقط، ولكني لمحت نباتًا ذا رؤوس متعددة على أطراف الطبق مرصوص وكأنه للزينة.

- **«عليَّ الذهاب الآن.. لدي محاضرة.. لقد أردت ـفقطـ أن أطمئن عليكِ»**. قلت لها.

- **«سلامي إلى أشرف إذا رأيتِه»**، قالتها وهي تلتقط ورقة من النبات الغريب وتضعها في فمها، وأصدرت صوت «قرمشة».

- **«ما هذا النبات؟»**، لم أستطع منع نفسي من السؤال.

- **«مُسبّع»**، قالتها بعفوية وكأنها تقول مانجو.

- **«مُسبّع! لم أسمع عن نبات بهذا الاسم من قبل.. ولكنه يبدو كنبتة الخشخاش ولكن برؤوس أكثر».**

- **«إنه ليس حشيشًا! ولكن إذا كنت تريدين حشيشًا.. يوجد قطعة منه في هذه العلبة على الأرض بجوارك»**، قالتها وهي تشير بأصبعها إلى صندوق بني صغير بالقرب من قدمي.

- **«من أين تحصلين على هذا النبات يا ريم!؟»**، سألتها وأنا أسأل نفسي لماذا سألتها هذا السؤال.. فلتنحرق هي ونباتاتها المريبة.

- **«أنا أزرعه».**

- **«ومن أين أتيت ببذوره؟».**

صمتت لحظة، ثم قالت بصوت منخفض:

- **«من الكالورمي».**

كان الوقت في ساعتي يخبرني أنه ليس هناك وقت لما سأفعله بعد ذلك ولكني فعلت ـللأسفـ فعلت!

- **«وما هذا الكالورمي يا ريم!؟ هل هو مكان سافرت إليه؟».**

لم ترد ووضعت وجهها في الطبق وأكملت أكلها، وقفتُ أتأملها وأنا أحاول أن أقيّم موقفي تجاهها، هل هي مجنونة بالفعل أم تدَّعي الجنون؟ هل تريد شيء آخر يجذب انتباة الآخرين إليكِ غير المال

يا ريم!؟ هل مللت دور الفتاة الثرية المدللة، فقررتِ أن تكوني الفتاة «السايكو» على سبيل التغير؟!

لا يمكنك بسهولة أن تخبر الفرق بين الجنون وادعائه، خط رفيع جدًّا لا تستطيع أن تراه إلا عين مجنون حقيقي، وحدهم فقط يشمون الدخلاء عليهم بالادعاء، يبدو أنني سأحتاج مساعدة «نايس» في هذا الأمر.

- **«هل تحبين أن تتذوقيه؟!»**، قالتها لتوقظني من أفكاري، نظرت إلى الصحن بشكٍ وشكرتها ورحلت.

***

المسافة بين المعهد والمنزل قصيرة جدًّا، تمنحني فرصة توفير أجرة المواصلات، وبعض الوقت لترتيب أفكاري، كنت أمدُّ الخطى حتى أستطيع الاختلاء بأشرف لدقائق قبل ميعاد الفصل الدراسي، وددت أن أسأله عن ريم، طالما هي تعرفه لدرجة أنْ ترسل له السلام فلا بد أنَّ لديه بعض المعلومات عن حياتها، ولكن -للأسف- عندما سألته عنها تنهد تنهيدة طويلة، ونظر إلى الفراغ... أين رأيت هذا المشهد من قبل؟!

بالضبط.. عندما كان أدهم يحكي عن ريم، تخيلوا معي نفس الموسيقى، نفس الإضاءة، نفس السرد زائغ الأعين.

- «في ذاك اليوم -حين قابلتها للمرة الأولى- كان أدهم قد دعاني لإحدى الحفلات التي يقيمها في شقته ليلاً، ذهبت يومها لأحتسي القهوة استعدادًا لسهرة طويلة، وكانت هي تجلس أمامي في المقهى، على وجهها الإرهاق وشعرها الكثيف المموج يكاد يفجر الرابط الذي عقصته به، بحثت عن أي قطعة ملابس أو أكسسوار أو شيء مميز لأتبين سر الضوء الخارج منها، كانت -حرفيًّا- تضوي عندما تحرك رأسها كصفحة بحر لامستها أشعة الشمس الأولى في الصباح».

- **«مممممم»**، زمجرت بغل.
- **«لم أستطع منعِ نفسي من التوجه إلى طاولتها والحديث معها كالمنوم مغناطيسيًا، وهي لم تعترض، بل إنها لم تتفاجأ، وإن لم أكن متوهمًا فهي كانت بانتظاري. تحدثنا لساعات ثم عرضت عليها أن تحضر معي إلى الحفل في بيت أدهم.. فوافقت دون تفكير».**

رغم الغيظ الذي هبط على صدري فإنني لم أستطع مجادلته، ريم جذابة جاذبية مستفزة، فليس هناك أي شيء مميز فيها، مجرد فتاة قوقازية أخرى، وعلى الرغم من أنني شقراء، فإني متأكدة أنها أكثر جاذبية مني وكأن هناك نافذة في روحها فُتحت على آخرها، بينما من ينظر إليَّ يرى «شيش» خشبي مدفون تحت طبقات من التراب التي... لكن!

- **«لحظة يا أشرف! ريم شعرها قصير جدًا من أين جئت بهذا الشعر المموج الطويل؟».**

ابتسم وقال:

- **« آه... تلك حكاية أخرى.. في يوم كنت جالسًا مع أدهم في شقته نشاهد...».**
- **«أشرف! يجب أن أذهب الآن! سنكمل حديثنا في وقت آخر.. يبدو أنك ليس لديك أي معلومات مفيدة عن ريم».**

استوقفني قائلاً:

- **«سارة! لا يغرك مظهرها الفاتن هذا، أنا لا أفهم السياسة ولكن إذا علم العالم بوجود "ريم" في مصر، لتعاملوا معها معاملة سلاح دمار شامل، لديها قدرة غريبة بابتسامة صغيرة على شفتيها، وهدوء قاتل، أن تلقي بلسانها قاذفات نووية، تقوم بمساواة كرامة من يتحدث معها والأرض.. لا تغضبيها.. واكتسبي صداقتها».**

- **«أخبرني مرة أخرى لماذا رشحت لي هذا المنزل!»** قلتها بغيظ، واستقبلها بحرج.

***

في طريق العودة للمنزل، منومة مغناطسيًا وفي عيني نفس نظرة أدهم وهو يتحدث عن ريم، توجهت إلى المسرح الذي يحضر فيه نايس تدريباته، وقفت أمام بابه أكثر من نصف ساعة منتظرة أن يخرج نايس محدقة في الفراغ، أشعر بالإهانة، فسحبت نفسي ورحلت.

عند مروري على حديقة المنزل، رأيت على ضوء اللمبة الصغيرة الذي يخترق الظلام، عددًا قليلاً من تلك النبتة التي كانت تأكلها ريم في أماكن متفرقة بأرض الحديقة، جثوت على الأرض لأقتطف واحدة منهم، وقبل أن ألمس ورقته ذات السبع رؤوس، سمعت صوت حركة قريبة من الحشائش التي أمد يدي إليها، تراجعت للوراء قليلاً باحثة بعيني عن مصدر الصوت، حتى رأيته يحوم في دوائر متتالية حول النبتة التي كنت أنوي قطفها، تراجعت خطوتين للوراء وقلبي يدق في حلقي، لم أفزع لرؤية ثعبان في حديقة منزلي، بقدر ما أفزعني أنه كان نفس الثعبان الذي رأيته في الكابوس، يخرج من جرح ريم ويبخ سمه في وجهي، نفس الثعبان، نفس الألوان، نفس القشعريرة.

كانت دقاتي السريعة العصبية على باب ريم، ليس لها أي تأثير على التعبير «الزيرو» الذي كان على وجهها وهي تفتح الباب، من بين أنفاسي المتقطعة أخبرتها عن وجود ثعبان في الحديقة، وأنه يجب علينا أن نقتله سريعًا بأنفسنا لأن أدهم سافر لمدة يومين على أقل تقدير.

ابتسمت ريم وشدتني من ذراعي إلى الشقة وهي تقول:

- **«اهدئي يا سارة.. إنه ليس سامًّا»**، قالتها واتجهت لغرفتها.
- **«هل تعلمون بوجود هذا الثعبان في المنزل وتتركونه هكذا؟!»** سألتها في ذهول.
- **«لماذا هذا الفزع! هو لن يؤذيك أبدًا، هو يحتمي بالحديقة من أقدام الناس في الطرقات ويأكل من المُسبَع ويعيش في سلام».**
- **«يا سلام!! اسمعي يا ريم أنا لن أبقى لحظة واحدة في هذا البيت والثعبان موجود يلهو ويلعب في الحديقة المجاورة لباب شقتي.. ثم انتظري!! هل يأكل الثعبان من نفس النبات الذي تأكلين منه.. أقصد... هل تأكلين هذا النبات من نفس الحديقة التي يعيش في هذا الكائن؟!».**

هزت رأسها أن "نعم".

أفرغت ما في جوفي عدة مرات في دورة مياه ريم، وأنا أفكر في الرحيل بلا عودة، سأذهب إلى بيتي في الإسكندرية مرة أخرى، سأقيم حفل شواء على أطراف بركتي الموحلة، وسأشتري فستانًا جديدًا للسيدة العجوز بغرفتي، وأغلق الغرفة علينا نشاهد أفلامًا لا يخرج منها ثعابين تزحف إلى طعامي.

هنا لمحت المظروف البني الجالس في أسفل الوعاء البلاستيكي الذي تستخدمه ريم كخزانة ملابس، كان ينظر لي ولم أستطع أن أشيح بنظري عنه. دون تفكير أخرجته من الوعاء وأخفيته في ملابسي وخرجت إلى ريم مسرعة وأخبرتها أنه عليَّ الذهاب في «مشوار» مهم كنت قد نسيته وعندما أعود سنناقش أمر الثعبان مرة أخرى.

***

عبرت البوابة الأمامية في قفزتين وأنا أتحاشى النظر في اتجاه الحديقة، وذهبت إلى هذا المقهى القريب من المنزل وفتحت المظروف، كان به مجموعة من الخطابات القديمة معظم أوراقها

مقطعة وبعضها مقطوع منه أجزاء، معظم الخطابات مذيلة باسم ريم لأخرى تُدعى فريدة مما يؤكد أن تلك رسائل غير مرسلة، أغلب الظن أن ريم كتبتها ثم قررت أن تحتفظ بها لنفسها، ولكن الغريب أن كل الخطابات مذيلة بتاريخ قبل اليوم بعشرة أعوام، يبدو أن ريم قد كتبت تلك الخطابات وهي صغيرة جدًا، سيطر الفضول على عقلي، وتواري الثعبان إلى جحره قليلاً.

طلبت كوب قهوة كبيرًا وبدأت القراءة. ووقعت عيني على اسم هريما للمرة الأولى.

الخطاب الأول

«العزيزة فريدة

كثيرًا أسعى وراء "هريما" حتى تمدني ببعض الثقة والرحمة، ولكنها تجافيني، فلا أدري أين أنا وماذا علي أن أفعل، وأوقات أخرى أتأمل أصابع يدي شاعرة أنها ليست لي، لست أنا من أكتب بل هي من سكنت هذا الرداء المزري وحملت روحي إلى قلبها وأدارت هي الأمور كاملة، بينما أستلقي أنا على ظهري بين أوردتها مدللة لا أتذكر شيئًا ولا أسعى لمزيد، وجسدي خفيف ينعم برخاء راحة بال.

ولكن هذا لا يستمر كثيرًا يا أمي! فسرعان ما أتصرف بغباء؛ فترحل عني، وترميني قدماي على أعتاب «أبيب»، ليغمرني بالنشوة والحب والمتعة، ولكن الملل سرعان ما يسيطر علي وأهفو إلى الرحيل، ولكن «أبيب» لا يتقبل هذا بهدوء، ويبخ سمه أولاً في قلبي عقابًا على تقلب روحي، أركض في متاهات باحثة عن

قطعة الجبن، لا أعلم متى سأقابل «هريما» مرة أخرى، ويغمرني حنين إلى حضنك الذي أتذكره رغم كل شيء.

أتذكر لعبة الأرقام التي كنا نلعبها على الطبل، أشتاق إليك يا فريدة! ربما فنجان قهوة يومًا ما لن يضر!

لقد أصبحت فتاة جميلة.. وقد يشعرك هذا ببعض الفخر! اليس كذلك؟

ابنتك ريم».

أغلقت الخطاب الأول وأنا لا أفهم شيئًا، فقفزت في حضن الثاني.

«فريدة

كنت أعلم إنني لن أستقبل ردًا منك، لست غاضبة.. بل أنا سعيدة لدرجة تجعلني أسامحك يا فريدة! لقد وجدت نصفي الآخر، قابلته صدفة في إحدى المكتبات العامة وتعارفنا، وكما تمنيت، طويل، أسمر، شعره طويل وداكن، هو من الأشخاص الذين ترتفع درجة حرارة الأماكن بمجرد دخولهم إليها، هو الإغواء ممثلاً في مائة وتسعين سنتيمترًا من الوسامة والسخونة، رائع كـ«نافورة» إيطالية، تحفة فنية تغرقك برذاذها المنعش طوال الوقت.

اسمه شريف.. وإليك المفاجأة التي لم نحلم بها.. إنه يكتب!

سأقابله مرة أخرى، بعد كتابة هذا الخطاب، يداي ترتجفان من الحماس والقلق، أنا حقًا اريده يا «فريدة»، لا أريد أن أخسره، تمني لي حظًا سعيدًا.

ابنتك ريم».

إذن ريم كانت قادرة على الحب فيما مضى، ربما لأنها كانت صغيرة وقتها! فتحت الخطاب الثالث وانا أشعل السيجارة الخامسة.

«أمي العزيزة فريدة

هناك رجال يضعون قواعدهم بخفة من دون أن تشعر المرأة أنها أرغمت على شيء، يمهد للدخول في حياتها برشاقة الغزال، يلتف حولها برشاقة الثعابين، يبتلعها إلى داخله برفق، ومن ثم يجعلها تفكر بعقله، وتعيش بروحه، وترى بعينيه، رغبته رغبتها، إنه تفاعل كيميائي يصعب وصفه، ومعادلة فيزيائية غير قابلة للشرح ولكن نتيجتها الوحيدة هي السعادة.

كان يمكن أن أبدأ خطابي باعتذار طويل عن تأخري في الكتابة إليكِ، ولكن أنا يا «فريدة» سعيدة لدرجة تجعلك تغفرين لي غيابي، اثنان وأربعون يومًا من الأحداث المتواصلة، لم ألتقط أنفاسي.

الأمر كله بدأ عندما قابلت «شريف» في الموعد الذي أخبرتك به، هل تتذكرين تجربتك الأولى مع الحشيش،

هل تتذكرين إحساسك وقتها.. إن كل شيء في الحياة أصبح له شكل آخر، وكأنك تنظرين إلى الكوكب بعين شخص آخر لم يتذوق سوى السعادة وراحة البال واطمئنان الروح، إحساسي بعد ساعة متواصلة من الكلام مع شريف، كان ملايين أضعاف هذا الإحساس، في الساعة التالية ونحن نتناول الغداء في مطعمي المفضل، أيقنت أني أريده للأبد، لا يعقل أنه في الإمكان أن أشتهي غيره بقلبي أو بعقلي، كل كلمة، وحركة من يده وكل ابتسامة ورأي وأي شيء يصدر منه صحيح مائة بالمائة، لو كنت كتبته فلن يكون بهذا الإتقان، لم يكن الرجل «المثالي».. ولكنه الرجل المثالي لي أنا فقط.. في نهاية اللقاء ختمته بختم ريم لضمان الجودة.. كان رجل أحلامي كما يقول الكتاب.

وعلى ذكر الكتاب.. كتابي الأول تم نشره.. ردود الفعل كانت طيبة مع بعض النقد الذي أثنى وجودي أكثر مما أهان موهبتي... الجنة لها وجود يا فريدة.

ريم».

ضبطت نفسي أبتسم وأنا أتخيل وجه ريم عندما كانت سعيدة، بالتأكيد كانت أجمل.. أو ربما السعادة تفقدها بريقها وغموضها المثير... وضعت أسئلتي جانبًا وفتحت الخطاب الرابع.

«فريدة

الجنة ليس لها وجود! هل تعلمين يا «فريدة» ما هو أسوأ من الموت حرقًا؟

هو أن تحترقي من دون أن تنالي رحمة الموت.. أنا أحترق يا «فريدة».. كل بوصة من جسدي في جحيم.

أحاول أن أتذكر متى بدأ كل شيء في الانهيار، متى ظهرت أول بقعة سوداء قبل أن تظلم الشاشة تدريجيًا، ليعمَّ السواد كلَّ شيء، عيني وروحي وأحلامي، وكأني أسير محاولة اختراق حائط بفعل قصور ذاتي، مجرد لهاث من دون أي إحساس واضح سوى ألم الاحتراق.

بعد نشر كتابي ونجاحه المتواضع، وعدم موافقة دار النشر لنشر كتاب شريف بدأ كل شيء يتغير، تدحرج شريف في فقاعة بعيدة عني وعن حياتنا، فيما بعد علمت أنها كانت فقاعة لشخصين، هو وصديقته المقربة، تلقيت هذا الخبر من إحدى صديقاتي بهدوء تام، ولكنني في لحظة تحولت إلى أسطوانة غاز، ممتلئة عن آخرها، يتسرب الغاز من أذنيها، جاهزة للانفجار مع أي شرارة، ورؤيتي له يبتسم وهو يتحدث بالهاتف؛ كانت الشرارة الكافية للانفجار، الانفجار الذي جعل حياتي والأرض سواء، انفجار لم يترك وراءه حتى أطلالاً أو أشلاء، كان نوويًا.

ماسورتا صرف صحي انفجرتا إحداهما في وجه الأخرى، كنت أنا وشريف نستخدم موهبتنا في رشق

الكلام بكل خبرة، هو يرميني بكلام مصاغ في جمل يسهل عليَّ تذكرها بألم بعد عام من هذا الشجار، وأنا أرشقه بكلام يحتاج على الأقل مائة غرزة لتلتئم كرامته، حطمنا هذا الجسر الذي يربط بين عالمينا، لم يكذب، ولم أكذب، كل المشكلة أننا أخبرنا بعضنا بعضًا بحقيقة مشاعرنا بكل صراحة:

- أنتَ كتِيب ولست أديبًا، وخيانتك لي ليست إلا غيرة مني.

- إنتِ إنسانة أنانية لا تفكر إلا في نفسها وتظن الكوكب كله يدور حولها وتعيش وهم موهبة ليست لديها.

وكان هذا آخر يوم أرى فيه «شريف»، إذا سامحته في يوم من الأيام على خيانتي، لن أسامحه أبدًا أنه جعلني ساعات بعد شجارنا أتساءل إذا كنت أملك ما أظن أني أملكه أم لا، تلك الساعات القليلة التي شككت في قدراتي فيها، كنت ميتة.. صدقيني يا «فريدة»، لم أسمع نبض قلبي.. تركت منزل زواجنا واستأجرت شقة بعيدة تمامًا عن كل من أعرفهم.. لا أفعل أي شيء سوى الكتابة.. إني أحتاجك جدًّا يا فريدة.. لماذا لا تردين على خطاباتي؟».

لأنك لم ترسليها مثلاً!! قلتها لنفسي وأنا أفتح الخطاب الخامس.

«كثيرًا أحاول الهروب من الكتابة، الإرهاق الجسدي والذهني الذي يسيطر عليَّ بعد مضاجعة الورق، الاستنزاف الذي أشعر به وكأني نقلت كيسين من دمي إلى شخص آخر، وكلما هربت منها، مات جزء من روحي، واجتاحتني حالة من الغضب على كل شيء، فأعود إليها لتملأني مرة أخرى بالحياة والوجع واللهاث وراء معنى للحياة بين السطور التي أخطها مقابل عمري، وكأنها صفقة أكثر خطورة من بيع روحي للشيطان، فإذا بعت روحي للكتابة.. فليس هناك مجال للتوبة.. ليس هناك توبة عن أقدس شيء في الحياة.

بعد أن كتبت لكِ آخر خطاب، رأيت وجهك بعدها في أحلامي يبتسم ويهمس «اكتبي».. والتفَّ حولي ذراعك كبحر وسع السماء، بعد هذا الحلم ظللت ساعات جالسة في شرفة غرفتي أتأمل السماء، تركته يغسل روحي من كل شكوكي، أنا أعلم أن الله في قلبي وسيساعدني، نفسي محملة بالسخط وكان يجب أن أترك له نفسي حتى يحررني.

في اليوم التالي.. كتبت يا «فريدة».. كتبت وبكيت.. وكتبت وبكيت.. وددت أن أعانق الورق، كتبت من دون أن أفكر في رد فعل أي شخص، كتبت حتى ألتقط أنفاسي، كتبت ليصلب طولي، كتبت وآمنت أنني خلقت لهذا... ولكن لم يستمر السلام بقلبي كثيرًا. فكلما قرأت ما كتبته شعرت أنه ضئيل، خاوٍ، لا يجسد ما يفيض

بروحي.. صلِّي من أجلي يا فريدة.. ادعي لي كأي أم تحترم نفسها».

ابتسمتُ رغمًا عني وفتحت الخطاب التالي.

«فريدة

اليوم وأنا أشتري بعض البسلة فجأة أدركت أنني أدفع مالاً مقابل شيء ينبت من الأرض! أثار جنوني البائع وهو يمد يده لي وكأنه حقه، أمسكت بحجر الاثنين كيلو وبطحته في رأسه ولكن قبضتي الضعيفة لم تسبب له سوى كدمة بسيطة ولكنها كذلك تركت في عينه نظرة خوف وتراجع إلى الوراء. شعرت وكأني حددت منطقتي بالتبول حولي في دائرة إذا تخطاها أحد سيصاب بأذى، في هذا اليوم أيضًا جاء عم جبار حارس البناية، يخبرني أنه ميعاد جمع فلوس المياه فبطحته بالكبشة التي كنت أطبخ بها البسلة، ولكن مرة أخرى كدمة صغيرة ونظرة خوف وتحديد منطقة حرة لي حولي لا يقترب منها، العالم -فجأة- يصبح طيبًا عندما تتبولين في وجهه يا فريدة!».

«رائع.. **تلك هي ريم التي أعرفها**»، تنهدتُ وفتحت الخطاب الأخير.

«خطتي تجاه العالم تنجح.. بطحت سائق سيارة الأجرة بزجاجة المياة.. وناولت هذا الشاب "شلوت" ألصقه في

عامود نور، بينما بصقت في وجه تلك السيدة التي كانت تجر الكلب عنوة وهو يقضي حاجته.. كان أسبوعًا حافلاً بالمرح.. وقد جاء دورك الآن يا فريدة!

هل تعلمين يا فريدة أنك أفشل وأبغض كائن حي قابلته في حياتي، تركتِني طفلةً صغيرة حتى تجدي لنفسك حياة أفضل، خوفًا من أن أشرق منك، ولكنك تخجلين من الرد عليَّ لأنك ما زلت مستمرة في البحث، كما تبحث هريما بجنون عن ريجيلوس، ويصارع أبيب الأرض ليصل إلى هريما.

لن تجدي شيئًا يا فريدة! لأنه ليس هناك شيء سوى الفراغ المريح.. وقد رأيته.. رأيت ريجيلوس ينظر بثبات في عين الليث، وككل رجال الحرب المخضرمين يفتح كل منهما النار على الآخر، حتى يفنوا وتنفي وأفنى، بعيدين كل البعد عن بعضنا، ويأكلك دود لن يمتَّ بصلة جينية للدود الذي سيلتهم أطرافي، لن ندفن بجوار بعضنا كالأسر الكريمة، لن يُدفن أحدٌ من الأساس، بل سنطير دون أن نتلاقى، وهذا كان اختيارك.. أرجو من كل قلبي أن تكوني سعيدة الآن رغم إيماني باستحالة هذا.

أنتِ لستِ فقط مثل كل البشر بكل نواقصهم وأمراضهم وجنونهم العقيم.. بل أنتِ أسوأ يا فريدة أسوأ من أي إنسان قابلته في حياتي».

***

أغلقت الخطابات ووضعتها في المظروف، وأنا لا أفهم الكثير من كلام ريم في تلك الخطابات، ولكن أكثر ما أثار دهشتي هو كيفية كرهها لأمها بعد أن تركت لها كل هذا المال الذي يتحدث عنه أدهم.. أعتقد أن أربعة أصفار كافية حتى أسامح كل الأشخاص على كل ما فعلوه بي، لقد سامحت بضعهم مجانًا بالفعل.

ريم تعشق الوهم ومتعلقة به بشكل جنوني، بل إني أستطيع رؤيتها بعيني وهي تعاشر الوهم وتنجب منه أطفالاً وتطلق عليهم أسماء وهمية كما تتشدق طوال الوقت، ريم عمرها لا يمكن أن يزيد عن ثلاثين عامًا، بمعنى أن تلك الخطابات قد كتبتها وهي في عمر العشرين أو أقل، سواء ما كتبته قد حدث بالفعل أو لم يحدث فهذا في حد ذاته جنون، فتاة في سن قريبة من المراهقة تقابل شابًا وتتزوجه وتقوم بتأليف كتاب في فترة قصيرة، لم أنكر أن أسلوب كتابتها لتلك الخطابات غير المرسلة به حزن وكآبة تكفي شخصًا عاش خمسين عامًا من عمر مرير، والجنون أحيانًا يصيب صاحبه ببعض الحكمة.

وجدت نفسي أتصل بأشرف وأطلب منه أن يأتي لمقابلتي، حكيت له كل ما حدث منذ أن جئت لهذا البيت حتى وصلت إلى نقطة الثعبان، وأعربت عن عدم راحتي في هذا المنزل، فعرض علي الإقامة في منزله حتى أجد مكانًا آخر. شعرت بحرج شديد كما أنني لم أتقبل فكرة العيش مع شاب في بيت واحد، ولكن على الأقل أشرف أفضل من الثعبان وريم بكثير، ترجلنا أنا وهو إلى المنزل لنحضر ملابسي وأغراضي، وتذكرت أن عليَّ اختلاق أي حجة لدخولي دورة مياه ريم مرة أخرى لأضع المظروف في مكانه.

ولكن كلما اقتربت من البيت زاد ترددي في الرحيل، بعد قراءتي لتلك الخطابات شعرت أن هناك تاريخًا يجمع بيني وبين ريم، إلى جانب شعوري بالذنب بسبب وصية أدهم قبل سفره، وددت أن أشتت ذهني عن كل تلك الأفكار لحين وصولنا للمنزل؛ فطلبت من أشرف أن يحكي لي تلك القصة التي كان ينوي حكيها عن شعر ريم.

ضحك أشرف ثم قال:

- «نعم هذا الموقف غريب جدًا في وقته.. ولكن حين تتذكرينه بعد فترة يبدو مضحكًا».

وبدأ في السرد.

- «في هذا اليوم كنا في منزل ريم نتبادل أطراف الحديث لساعات حتى صمتنا نحن الثلاثة، واستغرق كل شخص في عالمه، حتى شممتُ رائحة غريبة وسمعت صوتًا يخترق أذني، نظرت تجاهه فوجدت ريم تحرق أطراف شعرها بالسيجارة، فسألتها في دهشة: ريم! هل تحرقين أطراف شعرك بالسيجارة؟ لم ترد واستمرت فيما تفعله. لماذا يا ريم؟ فردت بهدوء: أحب هذا الصوت!! اقتربت منها وسألتها: هل أنت بخير؟! فردت: لا أعلم حتى معنى هذا السؤال..! نظرت إلى أدهم في تساؤل، فهز رأسه لي محذرًا إياي الخوض في هذا الحوار وكأنه يعلم آخره، ولكن الفضول سيطر عليَّ وسألتها: لهذا الحد أنتِ غاضبة.. ماذا حدث؟؟
فردت عليَّ بنفس الهدوء: كلا لست غاضبة.. أنا فعلاً لا أعلم ما معنى هذا... كيف يبدو لك الشخص الذي يبدو بخير؟

- تبدو عليه السعادة مثلاً... راحة البال.. لا أعلم.. على الأقل لن يحرق شعره بسيجارة... أنت تعلمين!!
- لا يا أشرف... لا أعلم.. هل أبدو لك كشخص مر بهذه التجربة على الإطلاق!! ولكن ليس هذا السبب الذي جعلني أحرق أطراف شعري بالسيجارة.. أنا فقط أحب هذا الصوت.. ليس هناك أي أبعاد نفسية وفلسفية أخرى وراء ذلك.
- ألا تخشين على شعرك مثل أي فتاة؟
- كلا.. إنه مجرد شيطاين صغيرة تخرج من أجسادنا.. إنهم قتلى حرب الهرمونات التي تدور داخلنا.. وفي يوم ما كان سبب تعاستنا الأولى.
هنا ابتسم أدهم ونظر لي نظرة: "ألم أحذرك"!
ابتسمت بسخرية وقلت لها: ريم.. لن أكذب عليك وأقول إنني لا أحظى بالكثير من المرح في آرائك بكل شيء.. ولكن مهما فعلت فلن أصدق أن هناك فتاة على وجه الأرض لا تحب شعرها.
في الصباح حلقت ريم رأسها بالكامل».

وقفت أنظر لأشرف بدهشة، فهز رأسه بأنه "نعم" وهو يضحك. ورغم ما يحدث وجدت نفسي أضحك معه.. من الصعب علينا إنكار أن ريم مسلية بالفعل، قد تصيبك ريم بأزمة قلبية عندما تعلم أنها تحتفظ بثعبان مدلل في حديقة منزلها كحيوان أليف، أو قد تصيبك بالرعب وهي تمارس شذوذها النفسي عليك، ولكنها -أبدًا- لن تصيبك بالملل.

(7)

عندما وصلنا المنزل؛ كانت ريم تقف على بابه مستندة على إحدى السيارات، ترتدي بنطلونًا قصير وتي شيرت أزرق، بدت طبيعية جدًا، فجأة اختفت رغبة الرحيل، ابتسمت لنا بجانب شفتيها، بينما بدا على عينيها الإرهاق الشديد، شعرت بغصة في أمعائي، غصة تمنعني من الرحيل وتربطني بريم وتترك داخلي نفورًا منها في وقت واحد، وكأني سأشتاق إلى تلك الغريبة التي لم أعرفها سوى من أيام قليلة.

استقبلتنا واضعة ذراعها حول كتفي، وباليد الأخرى صافحت أشرف وكأنها أم تستقبل ابنتها التي أحضرت صديقًا معها إلى المنزل، وبدأت في الكلام سريعًا وكأنها علمت بقراري، فأخبرتني أنها وضعت الثعبان في بيت زجاجي بشقتها، ووعدتني أنني لن أراه مرة أخرى.

نظر لي أشرف وقد لاحظ عيني الزائغة المحرجة منه، فهز رأسه لي متفهمًا ورحل، وقبل أن يغيب عن أعيننا صعدنا أنا وريم إلى شقتها، كل ما سيطر عليَّ وقتها هو أن أعيد المظروف إلى مكانه، فلا أريد أن أفسد هذا الود الذي بدأت ريم في إظهاره، وبعد تفكير وجدت أن ريم فعلاً لم تسبب لي أي أذى، بل على العكس كانت كريمة معي، ووفرت لي مال الحاسب الآلي دون أن يكون هناك سابق معرفة بيننا. جلستُ أمامها في غرفتها وأنا أحاول منع نفسي من فتح نيران الأسئلة عليها.

«كم عمرك يا ريم؟! لماذا تختبئين في هذه الغرفة وأنت لديك كل المال الذي بمقدوره أن يخرجك على أطراف الكوكب؟ لماذا تكهرين فريدة ـأمكـ وأين هي الآن؟ إذا كنتِ حقًّا كاتبة فأين

كتبك!؟ هل أنتِ هنا تبحثين عن قصة جديدة!؟ لماذا تحتفظين بثعبان في بيتك!!؟ ما الذي يدور في تلك الجمجمة الصغيرة... الجميلة!».

- «**هل لديك كشاف؟**»، هذا السؤال تركته يفلت مني بالفعل، كنت في حاجة لأي حجة تجعلني أجوب في شقتها حتى أضع المظروف في موضعه.

- «**لا.. ولكن ستجدين في شقة أدهم**».. قالتها وهي تناولني سلسلة مفاتيح وأكملت « **وأحضري لي علبة سجائر.. ستجدينها على منضدة غرفة الجلوس**».

هززت رأسي مستسلمة ومددت يدي ألتقط حقيبتي، فأنا لا أضمن إذا كانت ستعبث في حقيبتي أم لا. ولكنها استوقفتني قائلة: «**لا اتركيها.. ستعودين مرة أخرى**».

بحثت في عينيها عن نظرة شك تجلعها تفعل ذلك، لم أجد أي شيء على الإطلاق، لديها قدرة أن تحول حدقة عينها إلى زجاج عازل في أي لحظة، لا تستطيع أن ترى ما وراءه، فقط انعكاسك المقعر فيها، ولكن إذا تهشم هذا الزجاج، فأنا واثقه أن أحد شظاياه ستخترقني.

صعدت الدرجات إلى شقة أدهم وقلبي يصدر أصوات جهازٍ خرب، ماذا إذا بحثت في حقيبتي ووجدت المظروف؟! هذا موقف محرج إذا مررت به مع أي شخص، ولكنه موقف مخيف إذا مررت به مع ريم، يا ربي! هل من الممكن أن تكون قد اكتشفت اختفاءه وفعلت كل ذلك حتى تدخلني إلى المصيدة ثم تفعل بي ما تشاء!!؟

بعد الكثير من البحث في فوضى شقة أدهم، وجدت بعض علب السجائر المغلقة على الكومود المجاور لفراشه، بينما كانت ترقد على الفراش حقيبة سفر صغيرة، و«تي شيرت» مطوي ونظيف متأهب للارتداء، وعندما التفتُّ لأخرج لاحظت أن نور دورة المياه مضاء ويخرج منه دخان وكأن شخصًا أنهى حمامه الدافئ للتو.

ناديت أدهم عدة مرات، لم يجب ولم أسمع صوت مياه جارية، تقدمت إلى دورة المياه ببطء حتى وجدته ملقى على الأرض فاقد الوعي يرتدي حذاءه وبنطال الخروج وصدره عارٍ.

هذا الموقف دمر عشقي لمجموعة من الأفلام التي يأتي فيها رد فعل البطلة عندما ترى شخصًا ممدًا على الأرض؛ هو أن تجري عليه وتمسكه من كتفه محاولة إيقاظه، فقد كان رد فعلي هو الركض، كما لم أركض من قبل، حتى أن عضلة فخذي قد سبت لي لإيقاظها بعد كل تلك الأعوام من النوم.

أحضرت ريم التي رسمت على وجهها علامات اللامبالاة مسبقًا، وكأنها تتهمني بتضخيم الأمور، وعندما وصلت إلى جسده الممدد اقتربت منه قليلاً، ووضعت أذنها عند نفسه لنصف دقيقة ثم نظرت لي وقالت: **«إنه نائم!»**.

- «أنا أعتذر عن إزعاج حضرتك.. كيف لي أن أقلق نوم رجل ظننا أنه سافر ثم وجدناه ملقى على أرضية دورة المياه.. كم أنا تافهة!» لم أستطع أن أقولها بصوت عالٍ.

بكف يدها أمسكته من ذقنه وحركت رأسه يمينًا ويسارًا برفق، حتى استيقظ وبدأ يتمطى وهو مغلق عينيه وكأنه على فراشه، ولما أدرك الموقف جلس في حركة واحدة وهو يمسك بظهره ويتألم.

- «قبل أي سؤال، هل من الممكن أن تلفي لي سيجارتين»، وجَّه كلامه لريم.

لم يبدُ على ريم من الأساس أنها كانت تنوي الاستفسار عن شيء، لذلك هزت رأسها وذهبت، وقفت أنا حاضنة بذراعي جدار الباب لا أستطيع الحركة، حتى تحامل أدهم على نفسه وفرد قدميه وارتمى عليَّ ولف ذراعه حول كتفي، لا إراديًا أغمضت عيني عندما صعد لأنفي رحيق جسده، كان رائعًا!

أستطيع فهم مشاركة ريم الفراش معه وإن لم تكن تحبه، أنا فقط أريد أن «أدفس» أنفي في صدره وأعبئ من رائحته خلايا مخي.
- **«تعالي يا سارة! أريد أن أخبرك بشيء قبل أن تعود ريم»**. قالها وهو يجذبني لغرفته.

***

فتح أدهم علبة سجائر وأشعل واحدة وهو يمدد ظهره على الفراش، يعقد حاجبيه من الألم ثم أخذ وضعيته الدرامية للحكي. وقال:
- **«منذ أن رحلتِ، قُمت بتوضيب حقيبتي للسفر، ولكن سرعان ما بدأت ذبذبات ريم تزن في أذني تسحبني من رقبتي وتستجديني عدم الرحيل، حتى أنام بين ذراعيها وأنسى كل شيء، أنسى حتى العمل الذي يجب أن أسافر من أجله»**.

هززت رأسي متفهمة هذا الإحساس الذي راودني منذ قليل؛ ما إن رأيت ريم تنتظرني أمام باب البيت.
فأكمل قائلاً:
- **«فظللت أحوم في البيت لا أدرى ماذا أفعل، ويجثم على صدري الكابوس الذي أراه يوميًا ولم أستطع أن أعتاده أبدًا»**.

قاطعته طالبة أن يحكي لي هذا الكابوس، بعد أن تذكرت الكابوس الذي راودني والثعبان، سحب نفسًا طويلاً من السيجارة وهو يغلق عينه متحاشيًا خط الدخان، وقال:
- **«كل ليلة تقريبًا أحلم أنني استيقظت من نومى لأشرب، وأنا غارق في عرقي أخرج من غرفتي لأروي جفاف أحبالي الصوتية، وعندما أعود للغرفة، أرى ضوءًا أزرق ينبعث منها، أتجه إليه بهدوء، وأقف على الباب أتأمل جسد ريم العاري الممدد على فراشي، ينخفض نظري مع كل منخفض، ترتفع روحي ودقات قلبي مع كل مرتفع، إلى أن أتوه في ثنايا ومنحنيات جسدها وأغيب عن الوعي للحظات، وأود أن ألمسها... ولكن فجأة يتجول**

حول جسد سارة ثلاثة أمتار من أروع درجات لوني الأزرق والأحمر متنكرين في شكل ثعبان يمكنكِ أن تضعيه بداخل برواز وتعرضيه كلوحه فنية، يظل يحوم حول جسد سارة بخفة يستعرض فيها عضلاته بشكل ناجح دون أن يلمسها، يقترب برأسه من شعرها ووجهها وكأنه يتشممها، لم يبدُ على الثعبان أي نية لإيذاء ريم. ظللت أتأمل هذا المشهد الذي لن أستطيع أن أخرجه سوى في أحلامي، وأتذكر صورة المرأة التي كانت تمسك بثعبان وتقربه من فمها، تلك التي كانت تعلقها أمي فوق فراشها، هذه اللوحة متناغمة وليس عليَّ أن أتدخل وأفسدها، ولكن فجأة يراني الثعبان ولا يعجبه وجودي كأني أنا الدخيل، فيوجِّه رأسه تجاهي، ثم يقفز في سرعة هي أقرب للخدع السينمائية حتى وقف أمامي بالضبط فاردًا طوله، رجلاً لرجل، يتحجر جسدي وتعلو ضرباته عندما يقترب أكثر برأسه ليضع عينه في عيني، ويتأملني في صمت قاتل، ثم دوي برأسي صوت له أبعاد، صوت لم ينبعث من الثعبان أو من أي شخص، صوت لم أسمعه بأذني، صوت اجتاح خلايا مخي وأحرق بعضها، صوت يقول بغضب مخيف «إنها لي!».

فكرت في تهدئته مخبرة إياه أن هذا الحلم لا بد أن يكون بسبب الثعبان الذي تحتفظ به ريم، وليس عليه أن يقلق، ولكن كنت أعلم جيدًا أن حديث أدهم معي ليس رغبة في البحث عن الطمأنينة، هو يريد أن يفرغ كل السموم التي أفرغتها ريم في روحه عليَّ أنا، وكأنه وجد فريسة آمنة تشاركه ريم دون أن تشكل خطرًا عليه كرجل، بالطبع لن يود أدهم أن يقحم أحد أصدقائه في أموره مع ريم، لنفس السبب الذي جعلني أتجنب لقاء ريم مع «نايس».. صحيح! أين نايس!!؟

- **«هل ستجعل هذا الكابوس يوترك ويجعلك تهمل عملك!؟»**، حاولت أن أحدثه بالمنطق بعد أن قررت ألا أخبره بكابوسي أنا أيضًا.

- **«ليس هذا السبب في عدم سفري»**.

ضيقت عيني متسائلة، فقال:

- **«سأخبرك فيما بعد.. ولكن أريدك أن تساعيدني في أن نتخلص من هذا الثعبان الذي تحتفظ به ريم في الحديقة»**.

- **«إنه ليس في الحديقة الآن.. لقد وضعته في بيت زجاجي في شقتها»**.

نظر بدهشة إليَّ واتسعت عيناه وقال: **« لماذا؟!»**.

- **«لأني عندما رأيته شعرت بفزع وأخبرتها إن لم تتخلص منه سأرحل»** قلتها وأنا أظن أني أزف له خبرًا سعيدًا.

جز أدهم على أسنانه وهو يضم شفتيه بغل، ويتنفس من أنفه كالتنين وأوشك أن يخرج النيران من أذنيه غضبًا، ثم قفز عن الفراش، حافيًا، متجاهلاً آلام ظهره، ونزل مسرعًا إلى شقة ريم، ومن مكاني على المقعد المجاور لفراش أدهم، سمعت ضرباته القوية على الباب حتى فتحت له.

يبدو أنه قد طلب منها نفس الطلب من قبل ولم تنفذه، ونفذته من أجلي أنا!

بصراحة.. شعرت بالإطراء! نزلت إلى شقتي بعد أن اختفى أدهم في شقة ريم ما يقرب من نصف ساعة، وأنا أتمنى أن ينشغلا في شجار أو حتى فراش ولا يفكرا أن يقتربا من حقيبتي التي تركتها عند ريم.

وجدته واقفًا أمام باب الشقة، شعلة سيجارته تؤرق الظلام، أدخلته سريعًا لأجلس في حضنه فترة غير معلومة حتى أهدأ وأخبره بكل شيء حدث مع ريم وأدهم:

- «اهدئي يا سارة إنك ترين الموقف ضخمًا لأنك بداخل المشهد..عليكِ أن تبعدي خطوتين إلى الوراء لتري المشهد من الخارج كما أراه أنا».

- «وكيف تراه يا نايس!؟».

- «بصراحة أرى أنك تعيشين في منزل يبدو مخيفًا، مع اثنين يبدو أنهما معتوهان، مُدعيا فن، مدعيا مأساة، يظنان أن المعاناة هي «البروش» القيم الذي يضعانه على خُلة الإبداع باهظة الثمن التي تشتريها ريم بأموالها، ويوفر ثمنها أدهم بشركة الإنتاج التي يملكها، ويقوم بإنتاج أفلام قصيرة له هو وأصدقائه ولا يفهمها أحد غيرهم، نصيحتي الصادقة لك يا سارة هي ألا تتركي تلك الشقة فهي فرصة لن تجديها مرة أخرى في مطحنة القاهرة، ولكن تجنبي أدهم وريم بقدر الإمكان، واخرجي إلى الحياة يا سارة.. أنتِ لم تتركي غرفتك في الإسكندرية حتى تسجني نفسك في غرفة أخرى في القاهرة».

أشعل سيجارة وأكمل حديثه:

- «إنكِ حتى ليس لديك صداقات حقيقية في القاهرة حتى الآن، ما هي خطتك لنفسك في الفترة القادمة يا سارة!؟؟ أرجوكِ لا تتركي الآخرين يفسدون وقتك القصير في هذه الحياة!».

بالرغم من كرهي الشديد له في هذه اللحظة لأنه لم يعرض عليَّ أن أعيش معه في بيته كما فعل أشرف، إلا أن كل كلمة كان يقولها في محلها، بل ربما هذا هو سبب كرهي الحقيقي له في تلك اللحظة، ربما لم أكن مستعدة الآن للتعامل مع تلك الحقيقة، شعرت أنه يتحدث بأداء الطبيب الذي يريد إراحة ضميره تجاه مريضه الذي ساءت حالته، كل كلمة ينطقها في محلها ولكنها خالية من الرحمة. فهززت رأسي له واستلمت الأشعة والتحاليل في صمت.

ثم سألته عن عمله حتى أمنحه وقتًا طويلاً يتحدث خلاله، حتى يتيح لي أن أغيب بذهني عن كلامه من فترة لأخرى لترتيب أفكاري ثم أهز رأسي بمعدل ثابت لاقطة أي طرف حديث ألقي عليه تعليقًا سريعًا ثم أسرح بذهني مرة أخرى.

عليَّ أن أصل لأشرف الآن وأخبره بما حدث مع أدهم، يجب أن يساعدني في البحث عن أي كاتبة نشرت رواية من عشر سنوات واسمها الأول ريم، هل من كتب تلك الخطابات هي نفسها ريم التي أعرفها أم ريم التي سبقتها في السكن بالشقة وقد تركتها كما تركت الطبلة والستار على الحائط؟ تذكرت فقط في تلك اللحظة حكاية عم جبار الطويلة عن الفتاة المنتحرة، كان اسمها ريم أيضًا!

«آه.. فعلاً... رائع!» تحمست لنايس على شيء لم أسمعه.

ثم إنني أريد رؤية بطاقة ريم، أريد معرفة عمرها وقت أن كتبت تلك الرسائل، إذا كانت هي من كتبتها فعلاً! ربما أبحث أيضًا في تلك الأوراق التي تكتب فيها عن شيء مفيد، ربما أجد كل ما يحدث لنا مدوَّنًا في أورقاها، وأنها تستخدمنا كفئران تجارب لكتابة قصة جديدة، سيفسر هذا الكثير!

«هاها... هذا مضحك فعلاً.. هل تريد شايًا؟».

قلتها وأنا أتجه للمطبخ، ولكنه لحق بي ووقف قريبًا جدًّا مني وقال:

- « سارة.. أنتِ تعلمين أنه ليس هناك أسهل من دعوتي لك لتعيشي معي في بيتي.. ولكن مرة أخرى.. ليس هذا الحل.. أنا أريدك أن تجدي طريقك وحدك أولاً.. دون مساعدة أحد.. وهذا الطريق لن تجديه في غرفة مغلقة.. ستجدينه في الخارج.. في الحياة».

مرة أخرى.. كلامه صحيح.. وكرهي له يزداد.

ولكن قبل أن أرد عليه وجدت لسانه يخترق طريقه في فمي. قبل خمس دقائق إذا كان سألني أحد عن ردف فعلي على خطوة سريعة

مثل هذه كنت سارد "سأطرده" دون أن أفكر حتى، ولكن ما حدث بالفعل غير ذلك، بل كان عكس ذلك تمامًا في كل صوره وأوضاعه، ما إن بخ رحيقه في فمي خُدرت تمامًا، النوم بين ذراعي "أحمد" هو مزيج خرافي من أول فيلم كارتون تراه في حياتك وأنت طفل، والملعقة الأولى من برطمان النوتيلا بعد حرمان عام من الشيكولاتة، وحمام بارد بعد يوم حار، المتعة الأولى للطيران إذا توفرت لنا هذه المتعة.

ابقَ هنا يا "نايس" وسيصبح كل شيء على ما يرام، فجأة أصبح جنون ريم رائعًا، وعشق أدهم لريم لا يجرح كرامتي، والثعبان كائن مسالم صغير جميل، فقط دعني ألف يدي حول ظهرك وأجذبك نحوي حتى لا يفصل سيف الهواء بين جسدينا.

(8)

أيًّا كان ما تريده أو ما تحتاجه في أي وقت من اليوم؛ سيحضره لك "عم جبار"، علبة سجائرك النادرة القديمة -بلمونت في علبة ورق وليس كارتون- أو وجبة سمك فاخرة بالفجر، ربما منشار في منتصف الليل، وأيضًا معلومات عن تاريخ كل أسرة في هذا الحي والتاريخ الجغرافي والمعماري للشارع، كل شيء على رف تجاعيد وجه عم جبار.. كل ما يحتاجه هو أن يمد يده ويلتقط ما تريده وينظر لك في انتظار دفع الثمن بلا مبالاة، أنا لا أريد المجد.. أنا أريد المال.

عم «عبد الجبار» الذي نادوه صغيرًا «جبار» لثقل الاسم على لسانهم لطفل.

- **«وهل جبار اسم جيد لطفل يا عم جبار!»** اقولها له وانا اضحك.

فيبتسم ويقول: **الله يسامح أمي.. كانت تريد أن تخلد ذكرى جدها».**

لن يفلت أي منا من أمه، حتى عم جبار!

يداعب عم جبار أعضاءه وهو يتأمل الفراغ ويضيق عينيه وكأنه يصطاد فكرة، ذلك الوضع الذي يرسمه كلما سرح مفكرًا، ويجد صعوبة في التخلِّي عن تلك العادة إذا تحدث معه أي شخص واضطر للتفكير أو تذكر معلومة مهمة، ولذلك تجد عم جبار جالسًا طوال الوقت أمام الكشك الصغير الذي يمتلكه بجوار مزلنا، متخذًا وضع المفكر المداعب لأشيائه.

منذ أن انتقلت إلى هنا وأنا أتساءل: كيف يستطيع سكان الشارع التعامل معه وهو لديه تلك الحالة العصبية النادرة؟ ولكن ها أنا أقف أمامه أتحدث إليه وهو يداعب ثعبانه الصغير ونضحك سويًّا ويقص لي حكايات أهل الشارع الغريبة، ويغمرني وجهه البشوش ببعض الأمان الذي يخبرني أنه إذا حدث أي مكروه سأجد عم جبار يحله

بمكالمة هاتفية من جهازه المحمول الذكي الذي لا يليق مع جلبابه أو عمته في «كونتراست» يسيل له لعاب أي مصور فوتوغرافيا مدَّعٍ.

كيف تصالحت مع حركة عم جبار العصبية، التي كانت تثير اشمئزاي في البداية؟

التعود.. والاحتياج، إنهما يضعان رقعًا سوداء فوق كل تشوهات الوضع الذي نحياه، يمنعان عينك -رحمةً بك- عن رؤية الأشياء التي تكرهها في وضع لا تستطيع الخروج منه، صدقني وجودك الدائم في المشهد لا يجعلك مطلعًا على كل تفاصيله بل يجعلك تفصيلةً منه لا ترى باقي أجزاءه المشوهة، ولذلك لم أنتبه -هذه المرة- لما يقوله عم جبار الآن عن الفتاة التي كانت تسكن هنا قبل ريم، كانت هناك رقعة سوداء على فمه وهو يحكي، ستتكشف لي... ولكن العقل الباطن يقول من بعيد.. ليس الآن.. ليس الآن.. امنحها استراحة.

هل تتذكر تلك اليافطة في شارع بيتك التي عشت فيه كل طفولتك ومراهقتك وشبابك ولكنك لم تكتشفها إلا في الزيارة الأولى لبيت أهلك بعد الزواج.

- «ما هذا.. متى وضعت تلك اليافطة هنا؟».

- «إنها موجودة منذ البداية».

لحظة.. آه.. ثم لقطة «فلاش باك» لك وأنت صغير عندما رأيت تلك اليافطة للمرة الأولى، وقعت عيناك عليها ثم محوتها من ذاكرتك ووضعت عليها رقعة سوداء، كما وضع الطبيب صاحب تلك اليافطة رقعة شاش بيضاء بين فخذيك بعد أن جز قطعة من لحمك، و«يا ام المطاهر رشي الملح سبع مرات».. قل شكرًا لعقلك الباطن.. وفر عليك لحظات ألم كنت ستعيد تشغيلها في مخك كلما نظرت إلى اليافطة يومًا وراء يوم، عامًا بعد عام.

ولأني لم أعد أرى يافطة عم جبار، وجدت نفسي أضم اسمه إلى قائمة الأسماء في هاتفي، دون التركيز فيما يذكره حول ساكنة الشقة قبل ريم، ريم التي وضعت يافطتها في حقيبة، وألقتها في الصحراء، وأشعلت فيها النيران، أنا أرى ريم دون أي يافطات تحذير الآن.

- «إن احتجت أي شيء اتصلي بي».

- «أشكرك يا عم جبار».

في تلك الليلة جلست مع ريم أؤنس وحدتي بها حتى يعود «نايس» من العمل، فبعد أن وضعت المظروف في مكانه؛ هدأت أفكاري ومنحت ريم فرصة ثانية، ولا أرى منها سوى ما تركته الرقع السوداء المنتشرة حولها في كل مكان، حدثتها كثيرًا عن «نايس» وعن سعادتي معه، وأكثر ما كان يعجبني في ريم –في البداية- هي قدرتها القوية على الاستماع لك لفترات طويلة دون أن تقاطعك فلا توقِف فيض استرسالك، ولا تفحمك بمداخلة ثقيلة تفقدك حماسك للحكي، ولا تصدر لك تعبير وجهٍ ملول يخرسك قبل أن تكمل.

هي فقط تجلس أمامك وتنظر إليك أنت وحدك دون أن يشغل عينها غيرك، إذا ضحكت وأنت تحكي ستبتسم ابتسامة كسولة بجانب شفتيها، وإذا دمعت عيناك ستعقد حاجبيها وتلمع عينيها بدموع لا تنهمر منها أبدًا.

ولكنك سرعان ما تدرك الخدعة بعد أن تنتهي من الحكي، عندما تميل عليك وتغرس في حلقك تعليقًا ناريًا قاتلاً، يشعرك بغباء وتفاهة كل ما حرقت قلبك فيه منذ قليل.

«سارة! حبيبتي!! نايس لا يحبك! أنتِ لا تعنين له أي شيء سوى سكنٍ قريب من عمله وحجر لثعبانه.. لا تستقبليه مرة أخرى.. وأخرجيه من حياتك.. هذه نصيحتي لك».

سكتَ دهرًا!

نظرت لها دون أن أرد وهي لم تنتظر هذا، ظللنا وقتها صامتتين لساعات، تنكش هي في أوراقها وتضع بعض الألوان على لوحتها الغريبة، وقتها خطر لي أن أستغل أول فرصة ذهبت فيها إلى دورة المياه وقرأت ما تكتبه في أورقها.

«أنا هريما المُسبّعة، الروح الطيبة الأولى التي لم تضل طريق العودة..

بعد أن ضاجع أبي الأرض مع باقي رجالنا، طرحت روحي على إحدى أشجار مدينتنا البنية، وعلى عكس كل الأرواح، لم أضل طريق بيتي، لم يتوقع رجل في عالمنا أن يرى وليده، فكان الرجال يذهبون إلى أرض الزواج، يضحون بمائهم في مكامنها، فتطرح بعد برهة أشجار مدينتنا نساءً ورجالاً كاملي البلوغ، ولكنهم لا يعرفون أنسابهم.

وقت الحصاد؛ يأتي الرجال الذين ضحوا في موسم الزواج، يقفون عند الأشجار المثمرة بالرجال والنساء يتساقطون من على الشجر كأوراق الخريف وسريعًا ما يقفون بأجسادهن العارية، ناصعة البياض، تكاد ترى عروقهم من بياضها الشفاف، بعد أن يتأكد الرجال أن كل المواليد نضجت وسقطت، يختار كل شخص منهم وليدًا اختيارًا عشوائيًا، يتجه إليه ويلبسه غطاء في يديه، وآخر في قدميه وآخر صغير لجلد رأسه الخالي من الشعر، ثم يسحبه أو يسحبها إلى منزله ليقيم فيه عامًا ثم يرحل.

في هذا العام، يتعلم الوليد كيف يطير، كيف يغوص في سائل الأرض كأحد مخلوقاتهم، يتعلم الولدان التضحية عند البلوغ ببذورهم للأرض مقابل إعمارها، وإعمار روحنا، والنساء؟ تسألون، لا يتعلمن شيئًا!

ما ضرورة إعمار الأرض إن لم ننعم بها، ذاك السؤال رن بقلب أبي عند عودته من أرض الزواج، بعد أن ضحى ببذرتي دون أمل

في عودتها، نام في بيته، اثنان وأربعون ليلة، حزينًا، مكسور القلب، يشعر بالخواء، فقد كنت أنا بذرته الأولى التي يضحى بها منذ بلوغه، ولم يكن يظن أن الأمر قاتل هكذا، أصابته الحمى وكاد أن يموت، وعندما جاء وقت الحصاد، لم يخرج أبي من منزله، رفض أن يقبل بديلاً عن وليده، وظل راقدًا في فراشه ينتظر الفناء، ثم وجدني واقفة أمامه، وبياض جسدي يضيء ظلام الغرفة، ظل يتأملني بدهشة ولمعت عينه وهو يسألني:

«من أنتِ؟».

أجبته:

«أنا هَريما يا أبي.. الروح الطيبة الأولى».

قفز من الفراش وضمني بالرغم من قوانين مدينتنا، وكأنه لم يمسه المرض لحظة، ألبسني غطاء الرأس واليد والقدمين، وسحبني إلى كل بيت في مدينتنا البنية ليقص ويحكي لهم، التفَّ أهل المدينة حولنا، انتشر الخبر وعم أرجاء المدينة، أصبحت أنا هَريما الأولى التي لم تضل الطريق، هَريما التي رفضت روحها الطيبة التخلي عن أبيها، وعادت إليه، تبث الروح فيه، وعم الفرح المدينة من البركة التي حلت عليها بوجود روح طيبة بينهم، وعشنا أيامًا زاهية، وتلك كانت بداية النهاية الأولى».

هنا فقط تأكدت أن هريما وكل تلك الأسماء ليست سوى قصة جديدة تكتبها ريم، لم أشعر بشيء وقتها فقد كنت توقفت عن التفكير في كل هذا منذ أن جاء نايس ليعيش معي، وبدأ ود حذر ينمو بيني وبين ريم لم أرد أن أعكره.

عندما عادت من دورة المياه لم أجد رغبة في المكوث بالبيت ونايس ليس موجودًا فأغمضت عيني وانفصلت عنها قليلاً وهي لم تحاول إزعاجي.

ظللت أعومًا في ظلام بركتي بكثافتها الثقيلة، أرفع يدي للمرة الأولى وأتحسس الجدران التي تحيط بالمياه، شعرت أنني في دائرة، فلم أجد ركنًا أنحشر فيه، وكأنها سجن مائي يلفظني بحوافه المائلة، الماء يصل إلى رقبتي يصيبني باختناق ولكنه -للأسف- لا يغرقني، أتحسس الجدران مرة تلو الأخرى حتى لاحظت أن لها نهاية علوية، قفزت بكل قوتي ومددت كفي لفراغ لم ألمس نهايته، تابعت القفز مرة تلو الأخرى حتى تشبثت بالحافة، ووجدت نفسي خارج البركة، ولكني اصطدمت بباب موصد بإحكام، ولاحظت أن الفراغ الذي أقف فيه لا يكفي جسدي كاملاً ومن جانبي حاجزين حجريين يجعلان مصيري الوحيد إذا لم أفتح الباب؛ هو النزول إلى دائرة المياه مرة أخرى، حاولت نزع قفل الباب الحديد بلا فائدة، عدت إلى المياه وزحفت قليلاً لليسار فوجدت فراغًا جديدًا صعدت إليه فوجدت بابًا آخر موصدًا، عدت إلى المياه وأعدت الكرَّة مرات عديدة لأفهم وضعي الحقيقي الذي لا أراه في هذا الظلام التام.
وحيدة في بركة مياه مُقبضة، محاطة في الأعلى بمخارج مغلقة في وجهي لا أستطيع العبور منها.
صوت أمعائي وهي تتغذى على الهواء يؤلمني، وأطرافي تكاد تتجمد وتتكسر من رعشة جسدي وأهفو لأي طعام، فشعرت بشيء صغير يمر أمام وجهي فتحت فمي فجأة وبلعته دون أن أفكر في مضغه، أسكتَ صراخ معدتي قليلاً ولكنه لم يمنع البرد القارس.
أخرجتني حركة ريم المتوترة من بركتي وأفكاري، فتحت عيني فوجدتها تتحرك في الغرفة باحثة عن شيء، تتعثر أحيانا في الكتب المكومة ثم تتوقف لتتذكر أين وضعت الشيء.
- «عمَّ تبحثين يا ريم؟».
- «رأسي...».
- «تبحثين عن رأسك؟؟».

- **«رأسي تحتاج بعض الأخضر.. لحظة.. كان هنا.. ها هو».**

والتقطته من العلبة الصغيرة الموضوعة على الأرض واتجهت إلى اللوحة وهي ممسكة بالقلم الأخضر الباستيل وبدأت تملأ بعض الفراغات في اللوحة باللون الأخضر.

- **«ماذا ترسمين يا ريم؟»**
- **«أنا»**، ردت دون أن تنظر إليَّ.

وقفت بجوارها وأنا أتأمل اللوحة جيدًا للمرة المائة:

- **«ولكنها لا تشبهك على الإطلاق!».**
- **«بل هي أنا بالظبط... ألا ترينه؟».**
- **«أرى ماذا؟!».**

أشارت بطرف القلم الأخضر إلى أحد الأشكال غير المفهومة في اللوحة وقالت:

- **«هذا رأسي».**
- **«لن أجادلك في هذا!»**، قلتها في سري.

فأكملت هي قائلة:

- **«ميلي بنظرك لليسار قليلاً سترين الأنف واضحًا».**

ملت برأسي ونظرت للوحة بتركيز ولم أرَ أي شيء.

- **«آه نعم.. أراه الآن»**، قلتها لأنهي هذا الحوار العبثي.

نظرت إليَّ قليلاً وهي صامته وعلى وجهها تعبير الزيرو، ثم ابتسمت وقالت:

- **«كم أنت لطيفة! لماذا يا سارة... لماذا!!؟».**
- **«ماذا تقصدين؟».**
- **«ليس هناك أي أنف أو حتى رأس... لماذا قلتِ إنك رأيتِه؟».**
- **«لم أرِد أن أحرجك».**

- «ولماذا تظنين أنك بهذة الأهمية.. لدرجة أن رأيك في لوحتي سيغير موقفي منها! إذا كنت أنا أرى الأنف ومقتنعة أنه موجود 100% فلن يؤثر عليَّ رؤيتك له من عدمها».

- «ريم.. أنا لم أفكر في الموقف طويلاً لأصل لهذا التحليل.. لقد تصرفت بتلقائية، كما قلتِ أنتِ.. كنت أريد أن أكون لطيفة معك.. لماذا أزعجك هذا!».

- «إنه لا يزعجني على الإطلاق!».

- «ما مشكلتك إذن!!».

- «أنا ليس لدي مشكلة.. أنت من لديه المشكلة.. هذا الوضع يزعجك».

هززت رأسي.. عاقدة حاجبي كدليل على عدم فهمي.

- «كونك لطيفة طوال الوقت يا سارة.. هذا يزعجك.. لماذا لا تقولي ما يدور في رأسك وتنعمي ببعض الراحة».

لم أجد أي رد مناسب.. فقط وقفت أنظر لها كما كنت أنظر لأمي بعد أن كسرت كوبها المفضل

- «لماذا كسرت الكوب يا سارة؟!».

ما هذا السؤال!! لماذا في خيالك قد أكسره يا أمي.. هل بيننا ثأر بائت وأنا خططت طوال أعوامي السبع حتى أعود لأنتقم منك وأكسر كوبك المفضل.. إنه ببساطة انكسر!

- «انطقي!» صوت أمي يدوي في رأسي.

ولكن لم تقلها ريم كما كانت تلحُّ أمي في الحصول على إجابة كل مرة، ابتسمت ريم وأدارت ظهرها لي وأكملت وضع الأخضر في اللوحة، وقبل أن أخرج من باب الغرفة وأنا ألملم نفسي لأعود لنايس بتأنيب على تأخره؛ أعلم أنني لن أخرجه عندما أراه، أوقفتني قائلة:

- «على فكرة.. هناك أنف في اللوحة».

- «حسنًا يا ريم! أتمنى أن تكوني قد رسمتِه على قفاكِ».

قلتها في سري وابتسمت لها ورحلت.

بعد أيام قليلة، في لحظة صفاء بيني وبين ريم عبق خلالها دخان الحشيش الغرفة؛ فلم نعد نرى وجيهنا فأعطانا هذا الجو مساحة جيدة للتداعي الحر، وبنزعة مازوخية سألتها:

- « حقًا يا ريم.. ما هذه اللوحة؟».

ضحكت ريم على فضولي بشدة حتى بدأ يعلو خوارها، عندما تضحك ريم يصدر خوار من أنفها وتبدو لك كخنزير صغير غير مقزز، ولكنك لن تستطيع أن تمنع تلك القشعريرة في عمودك الفقري، التي تصيبك من وقع حريتها في التعبير عن نفسها، وهي تضحك وهي تصرخ وهي تعلن اعتراضها... وكأنها تنتهك سكونك.. وتطعنك في ضعفك وإخفائك الدائم لمشاعرك، عصفور مرح يطير فوق رأس سجين مؤبد.

وكأن شخصًا يقف أمام منحدر عالٍ ويقفز فتراه يطير، بينما أنت تدرك أن نتيجة قفزتك هي السقوط على جذور رقبتك، إذا فتحت صنبور مشاعري والتعبير عنها لن يكون لدي القدرة على إغلاقه.. لا أجيد التعامل مع هذا الفيض! فقط.. أخفيه بالداخل.. وأضع فوقه أطنانًا من الوحل، وأنساه تمامًا حتى أنسى أن له وجودًا من الأساس.

بعد أن انتهت من الضحك وسعلت مرات متعددة، قالت لي بصوتها الذي أصابته بحة:

- « إنها الكالورمي!».

- «مممم.. رائع!».

أكملت كلامها:

- «وأنا أضع الألوان عليها أرى بطرف عيني في آخر اللوحة هاجسًا غير مكتمل، أراه حقيقة ملموسة تتحرك، بكل خطوطه

وتفاصيله، أسير عليه بالألوان في نقاط بعينها فأظهر بعض تفاصيله المطموسة إثر تداخل الألوان، فيبدو وكأني خلقته ولكني لم أفعل ذلك.. هو موجود من البداية أنا فقط اكتشفته، وعلى الرغم من متعة الكشف فإني كرهتها وكرهت الوضوح فيها، ولذلك أترك الألوان الآن ممزوجة دون أن أقصي أحدها عن الآخر فتبدو غير مفهومة لك، ولكنها بالنسبة لي حياة كاملة.. عالم أعيش فيه بعيدًا عن خرائكم المقدس».

(9)

مر شهران دون أحداث جوهرية تعكر صفو دوران العجلة الروتينية التي أصابت المنزل، نايس استطاع بخفة وتلقائية شق طريق لصداقة أدهم وريم، فكلفني عناء حرج شرح إقامة رجل معي في المنزل على فترات متباعدة، بينما لم أجد أن أدهم ألقى اهتمامًا لذلك فعلاً، الأمر الذي أسعدني في البداية ثم أشعرني بالغيظ، ولكن سرعان ما انتهى هذا الإحساس لوجود نايس بجواري وهذا يكفي، والغريب هو أن ريم هي التي كانت دائمًا تتجنب نايس وكنت أرى كرهها لوجوده، وكثيرًا ما تكسرت عينها الزجاجية وانفجرت في وجهه، ولكن جلد نايس الميت تقبل تلك الشظايا بهدوء مستفز -في بعض الأحيان- لريم، لكن ذلك لم يمنع تجمعنا كل فترة نحن الأربعة في شقة أدهم للغداء الذي أقوم أنا بطهوه، ويبدأ الثلاثة في شرب الحشيش فيصبح العالم أفضل بالنسبة لهم، إلا إذا قال أحدهما رأيًا لم يعجب ريم فتفتح نيران آرائها عليه ثم تهمد بعد فترة وفي عينيها نظرة: «مفيش فايدة.. لن يفهم أحد شيئًا». فلن انسى أبدًا ذاك اليوم الذي حاولت إقناعنا فيه أن الأمومة هي أكثر شيء أناني في الكون، وأن غرض المرأة الوحيد من الرجل هو أن يمنحها طفلاً تفرغ عليه عقدها النفسية، والأسوأ من هذه الآراء الغريبة، هو عندما زاد تحمسها وأصرت أن يحكي كل واحد منا ما يجعله يكره أمي، «يا ستي أنا لا أكرهها أصلاً»، تلعنه بالكذب وتلعن أمه.

***

بعد حادثة أدهم في دورة المياه انتقلت ريم مع أدهم في شقته، ولكنها لم تتخلَّ عن شقتها فكانت تختلي بنفسها فيها من وقت لآخر، بعد أن نسمع أنا ونايس بعض الشجارات القادمة من شقة أدهم بينه

وبين ريم، ومع الوقت اعتدنا ذلك كأنه خلفية لحياتنا، ودارت حياتي أنا ما بين المعهد والعمل على أوراق الترجمة وبعض الجلسات مع أشرف وقد وجدنا موضوعًا مشتركًا نتحدث فيه، مواقف ريم وآراؤها الغريبة، وقد اكتفيت بذلك وقد همد بداخلي إحساس البحث وراء ريم. كان كلام نايس مقنعًا إلى حدٍّ ما، يجب أن أكتشف ما يحدث في رأسي أنا قبل محاولة اكتشاف ما يدور في رأس ريم.

ولكن! أنتم تعلمون تلك الدورات الروتينية المملة الصغيرة، التي تدور داخل الدورة الكونية الكبيرة الأكثر مللاً الكبرى، لا تستمر طويلاً، ويترواح عمرها من شهر لثلاثة أشهر على أقصى تقدير، إذا زادت عن ذلك فأعلم جيدًا أنها ستستمر سنة، وأنتم في غنى عن ذلك صدقوني. ولذلك ما إن كاد الشهر الثالث أن ينقضى، وبدأ القلق ينهشني ويجرني إلى بركتى التي أفتقدتها طوال فترة تواجد "نايس" في حياتي، وحشة ظلامها والصخور المدببة التي تنغزني ومطاردة اللاشيء، كل هذا أفتقده، حتى تجاعيد السيدة العجوز.

الشك من كون تلك الدورة الروتينية الصغيرة تتسع وتتسع وتوشك أن تصبح دورة حياتي أنا الطبيعية الدائمة؛ أصابني بالفزع، ليس هذا هو شكل الحياة الذي أريده، أنا لا أعلم ما هو شكل الحياة الذي أريده، ولكن بالطبع ليس ما يحدث الآن.

ولكن كذلك ليس لدي القدرة على تغييره، أصبح هذا الوضع مألوفًا ومحببًا للنفس كظلام بركتي الصغيرة الموحلة، لن أستطيع القفز من كل ذلك هاربة، لست أنا من تتحرك بهذه السرعة وتأخذ موقفًا حاسمًا، يجب أن يسوء الوضع على آخره، وينهار كل شيء حتى لا يعود هناك أي جزء سليم؛ وقتها فقط أستطيع الرحيل مخلفة ورائي أطلالاً أضمن أنه لن يأتي أحد بعدي ينعم بها.

ولكن إجابة الكون عليَّ أسرع مما تخيلت، فوجدت أشرف يتصل بي طالبًا مقابلتي سريعًا يخبرني بأنه في اليوم الذي اصطحبني إلى

المنزل قطف واحدة من هذا النبات –المسبع- ليريها لأحد أصدقائه دارسي النباتات، وأنه –أشرف- يريد مقابلتي لأن ما علمه يبدو غريبًا. سقط الحجر الذي ألقاه أشرف على الحياة الراكدة، واهتزت مياه البركة مخلفة دوائر صغير إثر سقوط الحجر بها، أغلقت الهاتف وقبل أن أتجه إلى غرفتي لأرتدي ملابسي، لمحت هذا الدخان القادم من دورة المياة، نفس الدخان الذي رأيته يوم أن وجدت أدهم ملقى على الأرض، ولكن تلك المرة تراجع قلبي ليصطدم بجدار ظهري، بينما تقدمت أنا إلى دورة المياه دون نية مني لذلك، وكأن جسدي يطفو إلى الأمام، يتم سحبه بحبال رقيقة ولكن قوية جدًا، تقدمت حتى وقفت أمام دورة المياه الذي كان بابها مفتوحًا، فوجدتها تقف في حوض الاستحمام تعطيني ظهرها، الجرح الطولي في ظهرها لونه أحمر دامٍ وكأنه جرح طازج، رائحة الدخان مزيج سحري من النعناع الخالص، رائحة نعناع لم يختبرها أنفي من قبل، رائحة تراها قبل أم تشمها، رأيتها تزحف في ميليشيات طائرة، تهبط بعضها على أنفى، والأخرى على صدري، تحاوطني حتى ابتلعتني الرائحة، ناديت ريم ولكنها كانت تقف ثابتة كتمثال رافعة رأسها للوراء تستقبل المياه القادمة من فوقها وكأنها تقيم صلاةً، ناديت بصوت أعلى فأنزلت رأسها وأدارتها ببطء.

لم يكن وجهها وجه ريم، فعدت للوراء رعبًا، خطوتين حتى اصطدم رأسي بالحائط خلفى، فارتجت عيني قليلاً صانعة غيمة من السواد أمامها، وحين عادت الرؤية كان كل شيء اختفى، الدخان، المياه التي لم تكن تصدر صوتًا وكأنها دخان كثيف وليس شلال مياه يسقط على تلك التي كانت تقف في حوض استحمام منزلي، جسدها جسد ريم، ولكن وجهها كان وجه أخرى، وجه فتاة لم أرَها من قبل، جلدها شديد البياض يترك شكًا في قلبك أنها مصابة

بمرض جلدي ما، الأمر كله كان مخيفًا أكثر من قدرتي على الاحتمال، ارتديت ملابسي سريعًا، ورحلت عن المنزل.

***

جلست أمام أشرف في المقهى مشوشة من تلك الرؤيا النهارية التي أصابتني، ربما هاجمت أدهم نفس الرؤيا المرعبة عندما وجدته ملقى على أرض دورة المياه، ولكن بدأ كلام أشرف يجذب انتباهي وهو يتحدث بحماس أراه للمرة الأولى على وجهه:

- «أخبرني صديقي اسم النبات العلمي ولكن وجدته أكثر تعقيدًا ولذلك سأسميه المُسبع كما تطلق عليه ريم، قال لي إن هذا المسبع كان ينبت بالفعل منذ ملايين السنين على جزيرة قريبة من بحيرة فيكتوريا، وهو ليس له وجود الآن، وحام حول هذا النبات الغموض في كتب التاريخ، لأن آلهة مصرية قديمة كانت تضعه في تاج على رأسها، وهناك أساطير تقول إن هذا النبات كانت تقوم بعض القبائل التي عاشت قرب بحيرة فيكتوريا بحرقه في بعض طقوسهم الدينية إيمانًا منهم أن دخان هذا النبات يقوم بتطهير أرواحهم من كل آثامهم وبالتالي يجعلها شفافة قادرة على التحرك بين كل العوالم الأخرى».

- «وكيف تبدو رائحته عند حرقها؟!»، سألته.

اندهش أشرف من سؤالي ولذلك قصصت له ما حدث مع أدهم في هذا اليوم، ثم ما حدث معي اليوم، شعرت بغضب في عينه لأنني لم أخبره من قبل عن كل هذا رغم مقابلتنا اليومية، عللت موقفي بأنني كنتُ أرمي كل هذا وراني وأقوم بالتركيز على حياتي أنا، هزَّ رأسه متفهمًا، ثم حاول إقناعي أن الأمر الآن يدفعنا أن نفهم ما يدور حقًّا حول ريم، ولم يكن في حاجة لبذل مجهود في ذلك، فقد التقطت الطُعم الذي ألقاه لي مرحبة للخروج قليلاً من مياهي الراكدة،

وقررت ألاأاخبر "نايس" عن أي شيء حتى لا أفسد صفاء علاقتنا الآن.

قبل أن يرحل أشرف سألني عن الاسم الذي تطلقه «ريم» على الثعبان، فقلتُ له إنها لا تناديه بأي اسم فقال لي هو يبتسم وقد بدأ يشعر أنه الشاب النيرد في هذا الفيلم العبثي.

- **«بالطبع هناك اسم له.. دائمًا هناك اسم».**

كدت أضحك على أدائه الدرامي المفاجئ ولكن لم أرِد أن أحرمه من تناول الطعم التي ألقته ريم لنا بخرافتها وثعابينها ورسائلها والمسبع، اكتشفت أن ما يجمعني بأشرف هو البحث عن أي شيء غير الأشياء التي نعلمها، بدا وقتها كلام «نايس» لي عن الخروج إلى حياة ساذجًا جدًّا.

حينها أدركت أنني لا أخرج إلى الحياة لأنني أخشاها، إنني فقط مللتها، الثلاث سنوات التي عشتها أتنقل كالنحلة من زهرة إلى أخرى، من مجموعة أصدقاء لمجموعة جديدة، اكتشفت عوالهم وأولها وآخرها، جعلني أشعر أن الملل هو جليسهم الوحيد، لذلك لم تستمر دورة صغيرة في حياتي أكثر من شهرين، لذلك لم تطاوعني قدمي أن أرحل عن ريم، بكل ما تحمله من احتمالات لا متناهية عن أشياء لم أسمعها ولم أرَها من قبل، كفتاة تقوم بتربية ثعبان كحيوان أليف، هل حقًّا له اسم، يجب أن أسأل ريم عن ذلك.

***

- **«أنه ثعبان هَرِيما».**

- Here we go.. قُلتها في سري.

كنت أعلم.. أقسم بالله كنت أعلم إنني سأحصل على إجابة مشابهة لتلك.

أخرجت ريم صغيرها من الحوض الزجاجي، فرأيت تلك البقع الزرقاء والحمراء على جلده، مما جعلني أشك أنه نوع نادر بالفعل.

أكملت ريم حديثها وكأنها تكمل تعريفها بالثعبان:

- «ثعبان هريما يجب ان يبقى هنا».

- أنا لم أعترض!!

لم ألحظ كيف تغير شكل ريم في الشهرين الماضيين، وكأنها حجبت عيني عنها بستار نايس، وزنها قل كثيرًا مما أفسح المجال لتلك العظمة المتلصصة في صدرها أن تطل برأسها من حين لآخر حين تحرك ذراعيها لأعلى، شعرها البني قارب أن يلامس كتفيها، شلال قصير كثيف، أرنبة أنفها التي طالت مع اختفاء شحوم وجنتيها قليلاً، عيناها الشاردتان في نقاط بعيدة عنك وأنت تحدثها، ولكنها احتفظت بردودها المقتضبة غير المفهومة.

حاولت إقناعها بالخروج من المنزل بعد أن تحدثت لأشرف وأخبرته اسم الثعبان فاقترح عليَّ أن أُخرج ريم من شقتها، وأترك الباب مفتوحًا حتى يأتي خلسة يبحث في أغراض ريم، كدت أرفض هذا الطلب ولكن تذكرت فضولي الذي دفعني من قبل لسرقة رسائلها فوافقته على الخطة، ولكنها كانت تتملص من الخروج تملصًا مستمرًا، وقتها فقط لاحظت ذلك، أنا لم أرَ ريم خارج المنزل إلا في المرة التي كانت تقف تنتظرني بها أمام البيت وكلما صعدت إليها وجدتها سواء في شقتها أو شقة أدهم، ولكن لم أصدافها في دخولي وخروجي من المنزل، ولم أسمع خطواتها خارجة أثناء وجودي في شقتي.

- «متى آخر مرة خرجت إلى الشارع يا ريم!؟»، سألتها.

جلست على كومة كتب قريبة من الحائط المغطى كاملاً بستار، وأسندت ظهرها إليه مما أزاح الستار قليلاً فرأيت رسومات وألوانًا على الحائط لم أستطع أن أتبينها لأنها عدلت ظهرها سريعًا لتسدل الستار عليهم وقالت:

- «منذ فترة طويلة... أنا لا أحب الشوارع.. إنها تثير جنوني».

بعد الكثير والكثير من الجدال، قامت فيه ريم بإلقاء العديد من محاضراتها عن كون البشرية كلها عقيمة وقد تحولوا إلى قطعان من الزومبي خالية من الحياة محدقة في أجهزتها، والكثير من المصطلحات الأخرى التي لم أفهمها ولكنها في النهاية استسلمت، جعلتها تسبقني في الخروج من الشقة وتركت أنا الباب مفتوحًا دون أن تلاحظ.

توقعت بعض الدراما عند خروجنا إلى الشارع مثل أن ينتاب ريم نوعًا من الذعر أو تفقد السيطرة على نفسها، ولكنها بدت هادئة هدوئًا مستفزًا، شهران مدة كافية لتجعل زيارة الشارع مرة أخرى إما مخيفة أو غريبة أو أي رد فعل غير هذا التعبير «الزيرو» على وجهها، بل بالعكس كانت مشيتها واثقة سريعة، تقودني بين طرقات الزمالك وكأنها تتجه إلى مكان بعينه، حتى وصلنا لأحد محلات التحف الأثرية؛ فوقفت ريم تتأمل كل قطعة على حدة في بطء شديد وتركيز، في حين اهتزت حقيبتي معلنة عن وجود اتصال، ابتعدت عن ريم التي لم تلحظ من الأساس غيابي، لأرد على الهاتف فوجدته أشرف. لم يجد أي شيء مريب في البيت، ولكن ما أثار انتباهه هو أن الثعبان يبدو شكله غريبًا وكأنه نوع نادر، هذا لا يمكن أن تكون ريم قد وجدته في الحديقة وقررت ألا تقتله، بل إنها بالتأكيد هي من أحضرته إلى البيت، وأقسم لي إنه متأكد أن هذا النوع سام، ولكن هناك احتمال أن تكون ريم قد استعانت بمتخصص لإزالة السم من فمه.

سألته إن كان وجد أوراقها أم لا، فقال إنه وجدها ولكنه لم يجد شيئًا مهمًا، مجرد قصص خيالية غريبة، للحظة شككت في غباء أشرف، قد تكون تلك القصص الغريبة تحوي كل التفاسير التي نبحث عنها. ولكن قبل أن أطلب منه أن يقوم بتصوير تلك الأوراق بهاتفه، حتى أفرزها بنفسي، وجدته يقول:

- «انتظري لقد وجدت بطاقتها... هل كنتِ تعلمين أن ريم ليس هو اسمها الحقيقي؟!».

- «لا لم أكن أعلم.. ما اسمها؟».

- «فريدة!».

نظرت إلى ريم/ فريدة، وأنا أتذكر كل حرف في الخطابات، ولا أفهم شيئًا، وكانت تلمس إحدى القطع الأثرية بأصابع يدها وتسير عليها ببطء، وحتى الآن لم تلاحظ أني ابتعدت لأتحدث في الهاتف، بشرتها البيضاء المشدودة، وقوامها المتناسق في الرداء الجينز، يجعلانها جميلة وغير مخيفة.

ضحك أشرف ضحكة عالية وأطلق سبة وقال:

- « لن تصدقي كم عمر ريم.. أو فريدة!».

- «كم؟».

- «خمسة وأربعون عامًا.. إنها فعليًا في عمر أم أدهم!»، قالها أشرف وهو يضحك.

(10)

وقفت خارج المعرض أحاول ترتيب أفكاري ولكن قبل أن أجد جملة مفيدة في ذهنيّ تفسِّر ما يحدث، سمعت صراخًا قادمًا من المعرض، ركضت في تجاة الصوت لأجد صاحبة المعرض السيدة العجوز، ترقد على ظهرها في الأرض وريم تجلس فوقها تكيل لها اللكمات وكأنها سيدة غيور وجدت عشيقة مع زوجها في الفراش. لثوان تملك الذهول منَّا جميعًا، ونحن نراقب وجه ريم التي تكيل اللكمات للسيدة العجوز غير القادرة على الحركة؛ وعلى وجهها هدوء فتاة تقطِّع خيار السلاطة، ثم تقدم إلى الأمام الفتى الصغير الذي يعمل في المعرض، بعد أن قمت بإخصائه بنظراتي، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة ونظر لي، وهو يرمي الكرة في ملعبي، قائلاً بكل ما تحمله لغة جسده من مهارة: «نعم أنا رجل.. ولكنها جاءت معك».

باستسلام اقتربت منها وأمسكت بذراعيها لأوقفها عن صفع السيدة العجوز، فنظرت لي ثم هزت رأسها في لا مبالاة، وخرجت من المعرض وهي تعدل ملابسها.

خمس خطوات حتى خرجت من المعرض كخمسة أعوام من الخزي، لا أستطيع رفع عيني عن الأرض لأواجه المارة الذين تجمعوا يراقبوا المشهد من بعيد، بينما تسير هي فاردة كتفيها حتى وصلنا إلى الشارع المجاور وتوارينا عن الأعين المحدقة في ظهورنا.

خدر وشلل مؤقت أصاب جسدي كله، تركت القصور الذاتي يقوم بدوره، وسرت منومة مغناطسيًّا، أحدق في سواد ظلام بركتي الذي حاصرني من كل جانب، يحاول أن يحجب الألم الذي غزا روحي من مشهد السيدة العجوز وهي تبكي، وكف ريم يهبط على تجاعيد

وجهها، وكأنها أهانتني، وكأنها أهانت أمي، بل كأنها بالفعل ضربت أمي.
تلك المرة الأولى التي شعرت أن ريم آذتني بالفعل، وكأنها جلدتني بسوط من جليد على ظهري، شعرت بقبضة في أمعائي وبرأسي تدور، وتغزوه البرودة، وددت أن أستسلم لهذا الإحساس وأتركه يجد طريقه إلى خلايا مخي كاملة حتى أسقط على الأرض دون أن أشعر بشيء.
ولكن حتى هذا لم تمنحني ريم إياه، فاجأتني بإحدى نوبات ضحكها الهستيرية، فقد اعتدت على هذا منذ أن جئت إلى هذا البيت، فجأة ونحن جالستان ودون أي سبب تبدأ ريم في الابتسام ثم الضحك، ثم ضحك أعلى، وتتكوم ممسكة ببطنها على الأرض وعيناها دامعتان من الضحك، ضحك حقيقي من قلبها لدرجة أننا في مرة دون أن نفكر ضحكنا على ضحكها حتى دمعت أعيننا.
ولكن تلك المرة كانت النوبة أقوي لدرجة أنها توقفت عن السير واستندت على عربة ووضعت يدها على بطنها تقاوم تشنجات بطنها من قوة الضحك، تخرج أصوات متقطعة مضحكة، تأخذ نفسًا طويلاً وكأنها تغرق، حتى جلست على الأرض بجوار عجلة السيارة، ووقفت أنظر إليها وكأنني في انتظار كلبي المدلل حتى يقضي حاجته.
ثم قالت من بين الضحكات:
- **«لقد تبولت على نفسي».**
اقتربت منها أتفحصها فوجدت بالفعل خط المياه بدأ يخترق طريقه إلى فخذها، أمسكتها من ذراعيها وأوقفتها على قدميها وأكملنا الطريق إلى البيت، مستمرة في الضحك، ومستندة عليَّ.
تركتها تصعد إلى شقتها بمفردها، كنت أحتاج وقتًا مستقطعًا منها، كل ما أفكر فيه الآن هو أن أغوص تحت مياه دافئة، وأنام بجوار

نايس، ليسدل ستاره مرة أخرى على تلك الأحداث، ولكنه لم يكن في المنزل، فاكتفيت بالنوم داخل بركتي، يدلِّك آلام ظهري الوحل الراكد بها، وتهدهدني صخورها المدببة، ووجه أمي يظهر من الحين للآخر، أبتسم لها، ولكن سرعان ما تظهر ريم وتبدأ في ضرب أمي.

أزيز الهاتف في الحقيبة أرسل ذبذباته داخل بركتي فصنعت دوائر صغيرة متتالية، التقطتُه فوجدتها رسالة من «نايس»:

«آسف يا سارة، اضطررت للسفر، سأعود بعد ثلاثة أشهر».

الزمن نسبي، الساعة تقول إنني نظرت للرسالة لمدة خمس دقائق، ولكنهم كانوا خمسة أعوام أطول من الأعوام التي قضيتها في رحلة خروجي من المعرض بعد فضيحة ريم، في تلك الرسالة الباردة الرسمية، كبرت أعوامًا، لا عجب أن ريم لا يبدو عليها عمرها الحقيقي، لأنها الجلاد، لأن الزمن لم يصفعها على وجهها، لأنها لم تتسلم رسائل رحيل مثل تلك الرسالة، لأن الجميع يريدون الالتصاق بمؤخرتها الرائعة المجنونة الجذابة، هل تعلمين يا ريم أو يا فريدة.. لم تعودي جذابة بعد الآن، بل أنت فاشلة.. ربما مثيرة للشفقة أكثر من العجوز التي كنت تركلينها ضربًا اليوم، وأنت يا نايس!

«رحيلك بهذا الشكل، لم يجعلني أكرهك، ولم يجعلني أحبك أكثر، ولم يزِد اشتياقي إليك، ما فعلته، لم يسبب سوى الألم فقط... لكلينا لا أنكر أن وجودك أعاد لروحي كل أيامنا الجميلة، أعاد إليَّ وجه أمي وهي تناولني السندوتشات وتخبرني أنها "عملت حسابك"، لقد كنت أخي في صغري، وصديقي وأنا أكبر، وأبي حين تدافع عني، وابني حين تخبرني عن مصائبك، وحبيبي أيًا كانت الظروف، أنا لا أدري لماذ لم تخبرني عن سفرك، رغم أننا كنا بالأمس على فراش واحد، تاركًا عرقك ورائحتك على غطائه.

أهناك أخرى؟؟! بالطبع هناك أخرى.. ولكن... هل هناك أخرى تحبها مثلي؟

هل هناك أخرى نامت يومًا وهي صغيرة على حجر أمك، هل هناك أخرى لن تحتاج أن تحكي لها عما عانيته في صغرك لأنها عاشته معك بالفعل، دموعك تلك التي بللت كرَّاسي في اليوم الأول الذي أتيت فيه إلى المدرسة بعد وفاة أبيك، هي نفسها الدموع التي بللت كتفي العارية في أول مرة رأيتك في القاهرة عندما أخبرتني أن أمك أصيبت باللوكيميا، تلك الدموع، هل تستطيع أن تمنحها للفتاة التي ستقابلها اليوم في أحد الملاهي الليلية بعد أن تفرغ في دمك جالونين من الكحول؟!!

تلك الدموع يا نايس، هل ستعطيها بقشيشًا للفتاة التي تستأجرها لتمارس معها هواياتك الغريبة، تلك الفتاة إن لم تكن تلك مهنتها، هل ستتجرأ وتخبرها عن أكثر الأماكن سوداوية في روحك؟

اذهب يا نايس دون أن تقول، ولكن أنا وأنت نعلم أنك ستعود، لأنك مهما سافرت، ستعود يومًا "للبيت"، وأنا أقولها لك برضاء تام، يمكنك أن تضعه في أحواض نساء العالم كلهن، ولكنك لن تضع رأسك على صدرِ أخرى غيري».

ضغطت زر الإرسال دون أقرأها، وجلست أنظر للشاشة وأنا عاقدة ذراعي على صدري، شعرت بغباء شديد وبتفاهة ما كتبته مقارنة بما أشعر به، ولكن كان يجب عليَّ أن أفعل شيئًا يطفئ الشعلة التي أوقدها نايس برسالته، جلست وليس في جسدى قوى للحركة، معلقة عيني على الشاشة ولكنني لا أرى إلا أمواجًا من الأبيض والأسود.

وفجأة كماس كهربائي لمس جسدي، ارتجَّ سقف الغرفة فوقي، وكأن خزانة ملابس كبيرة قد سقطت على أرض شقة ريم، ولكن ريم ليس لديها خزانة ملابس أو شيء بهذا الثقل، ركضت إلى شقتها فوجدت أشرف ممددًا على الأرض، ملقى على وجهه في

غرفة جلوس ريم، بينما تقف هي منكمشة وفي عينيها نظرة خوف أرعبتني، أكثر من خط الدماء الطويل الذي يمتد مبتعدًا عن رأس أشرف النازفة. الشيء الذي يخيف ريم، مجرد التفكير فيه يقتلني أنا.

رفعت رأسي إليها:

- «ريم، لماذا لا يبدو عليك أنك من فعلت ذلك؟».

- «لأني لم أفعله».

- «من فعله إذًا يا ريم؟».

لم ترد عليَّ، هنا وصل أدهم، كان واقفًا على باب شقة ريم، ينظر إلى المشهد في ذهول وعدم فهم.

(11)

الحرية هي الشيء الوحيد الذي يعطيك الحق في الرحيل، دون أن تنظر وراءك.
كان من الممكن أن أجمع أغراضي في حقيبة تاركة المنزل بأدهم وفريدة وجثة أشرف وما تبقى من نايس وأرحل، كان يجب أن أفعل ذلك بمجرد أن رأيت جثة أشرف وخط الدماء يشق طريقه مبتعدًا عن جثته الممدة بيننا نحن الثلاثة على الأرض.
ولكن لم أجد قدرة على الرحيل، والبقاء كان أسهل من تحريك قدمي، رائحة الدماء زكمت روحي، وريم تقف بعيدة أراها تهتز كصورة مشوشة وتردد بلا توقف: **«إنه أبيب.. هرب.. وهو الذي فعلها.. هو الذي فعلها»**.
شعرت بثقل في قلبي وكأنه قطعة حديد لم تتحمل أوردتي حملها فسقطت إلى قدمي، وشلت حركتي، ظللت واقفة عيني محدقة للأمام ولا أرى شيئًا، مجرد خيالات سوداء تتداخل في أشكال غير مفهومة كلوحة فريدة المعلقة على حائطها. ثم غبت عن الوعي قليلاً.
خف جسدي وركضت إلى بركتي، قفزت فيها، فقفز الوحل دفعة واحدة راسمًا لُطخًا هنا وهناك حول البركة، ثم لاحظت أن جسدي أصبح أكبر من البركة، ونصف جسدي فقط المغطى بالمياه والباقي مُعرض لأشعة الشمس الحارقة التي تنغزه بقسوة، جلستي أصبحت غير مريحة وبدأت أشعر باختناق والبركة تضيق وتضيق أو أنا التي أتضخم وأتضخم، تتكسر عظامي تحت ضروسها، وكأنها تمضغ فراشة.
عدت بوعيي إليهما للحظات، رأيتهما يجلسان، مسودَّة وجوههما لا يتحدثان، بينما أنا مستلقية على حقيبة نوم فريدة، ولمحت بطرف

عيني جثة أشرف وقد غطياها بالجرائد بينما ظلت عينه المفتوحة من بين المساحة الفارغة وكأنه يحدق فيَّ، استسلمت للخدر مرة أخرى وبدأت أرى خيالات تحاول تخمين شكل هريما، وأبيب، وريجيلوس، ولكن بلا جدوى.
فبدأت الخيالات تتحول فقط إلى وجوه غريبة شدتني إلى قصة خيالية مرعبة استيقظت منها وأنا أركض وراء أنفاسي وأشعر أن جسدي ضعيف جدًّا.
كان عقلي يعمل بسرعة لم أعتدها من قبل، بدأت العروق تنبض في رأسي وأنا متكومة في فراشي، سخونة رأسي تزحف إلى رقبتي وظهري، عرق يوليو أغرق جسدي، فأدركت أن شباك الغرفة مغلق، نهضت لأفتحه ليمرر بعضًا من نسائم الصيف التي تتخلل الصهد، ولكن عندما أضأت النور، وجدت ضلفتا الشباك مفتوحتين، ولكن نافذته هي التي كانت مغلقة بطبقة من الطين، يبدو صلبًا رغم مظهره اللامع وكأنها أرض زراعية تم ريها منذ قليل، وقفت أنظر إلى الشباك متسمّرة، لم يترجم عقلي أي تفسير أو حتى انفعال، تقدمت منومة مغناطسيًّا لألمس طبقة الطين التي سدت النافذة تمامًا، لأجد أنها تتموج كالماء عند ملامستها، ولكنها في ذات الوقت صلبة كظهر سلحفاة، حاولت اختراقها بقبضتي، تمددت الطبقة الطينية مع يدي دون أن يحدث أي شرخ ثم ردت إلى قبضتي بقوة دفع أضفت على الطينة طابعًا بشريًّا وكأنها ترد لي الصفعة، تراجعت للخلف وأنا أشعر أن الطبقة الطينية تنظر لي بعيون غير ظاهرة، خرجت بظهري من الغرفة، لم يكن ريم أو أدهم في غرفة الجلوس كما تركتهما، جثة أشرف فقط ترقد هناك، وسمعت بعض الجلبة في المطبخ، لمحت الشباك المجاور لي، وذهبت إليه أفتح ضلفتيه وأنا أقاوم رعشة تهاجمني، فوجدت نفس الطبقة تقف تنظر لي بتحدٍّ، جريت إلى باب الشقة لأخرج، ولكن تلك الطبقة تقف شامخة تسد

باب الشقة أيضًا، تنظر لي بتحدٍّ، صرخت أنادي ريم وأدهم، فخرجا من المطبخ غير مسرعين وكأني أزف إليهما خبرًا قديمًا.
حاولا إشعال الطبقة بالنار، ورشها بالمياه، وألقيا نفسيهما خلالها فتلقي هي بهما على أرض الغرفة بقوة مماثلة لقوة دفع جسميهما، فوجدا أنه ليس هناك ضرر من بعض الراحة وقليل من الطعام.
جلسنا على الأرض في النهاية لا نعلم ما علينا أن نفعل، نحاول استرجاع كل تفصيلة يمكن أن تفسر لنا ما يحدث، سألتها عن أبيب الذي قالت إنه قتل أشرف.
فبدأت ريم تردِّد كلامًا عن زيارتها لأبيب وتحكي لنا كيف تعقدت الأمور، اختفت تلك الهبة تدريجيًّا، لم تعد تقدر أن تذهب إلى مركزها المحبب حيث الكائنات اللطيفة، اسودَّت الحياة في وجهها مرة أخرى، ولكن ظل أبيب يهوِّن عليها كل شيء، تذهب إليه في بقعته الداكنة، يلتف حول جسدها فترى ألوانه الحقيقية، ترى جسده الطويل الثعباني، مطرزًا بأرقى درجتي ألوان الأزرق والأحمر، أكثرهما حياةً ونبضًا، يلتفُّ حول جسدها راسمًا بجسده الطويل علامات لا متناهية ولا يفصلها عن السماء شيء، لا يبعدها عن الأرض شبر، ينتفض جسدها والأرض تنتفض معه، تصبح نشوتها وسعادتها بلا نهاية –أو هكذا تظن- تقف على رأسه بقرب عينه الدائرية الزرقاء، ثم تترك جسدها يسقط، فينزلق فوق جلده الناعم، لتهبط إلى الأرض في حلزونيات تشبه «الزحليقة»، فتصل بها إلى أعماق الأرض، فتتذوق طينها عسلاً، ودودها فراشات جميلة، أعطاها «أبيب» متعة تبدو في لحظتها أبدية، ولكنها حين عادت اكتشفت أنها لم تعد تستطيع العودة مرة أخرى إليه، اختفت الهبة كاملة ويبدو أن هذا عقابها، شعرت بالندم والخوف يتقاسمان قلبها، بحثت في كل أدراج رأسها عن خطة بديلة، أو قديمة مهملة، لم تجد

واحدة، يبدو أن خالد الغبي قد تخلص منهم أثناء مكوثه فترة محتميًا من غبائه داخل أحضان رأسها.

بدأ الرعب من المجهول يتسلل إلينا ولم نفهم كلمة من كلام فريدة/ ريم، ونظرات أدهم الخاوية تكاد تخترقني، بينما نجح صمت فريدة الحزين وهي تنظر لجثة أشرف أن يخترق قلبي بالفعل، أسندت رأسي إلى الحائط مستهلكة آخر طاقة خرجت من جسدي كانت في محاولاتي لاختراق هذا الحاجز، كان يجب عليَّ أن أرى بنفسي أنه ليس هناك طريق للخروج، ولكن في النهاية استسلمت وجلست على الأرض منهكة أمام نظراتهما الخاوية، كدت أغيب عن الوعي لولا هذا الزاحف الذي خرج من الطبقة الطينية التي تغطي النافذة فوق رأسي، مرَّ الثعبان بهدوء من جواري دون أن يلحظني وكأنني لست هدفه، يوجه رأسه بسرعة إلى المكان الذي تكومت فيه فريدة على الأرض، ثم يطير بجسده تجاهها وهو نافخ رأسه كالكوبرا، ركضت وأنا أصرخ تجاه فريدة، أحتضنها وأنا أغطي جسدها محاولة إبعادها عن مرمى جسده.

لأشعر بارتطام قوي برأسي ولم أرَ سوى الأسود يغطي كل شيء، يتكون في أشكال غير مفهومة، يموج ويهتز ويسير في دوائر ومربعات، ولكنه يظل أسود لا يشوبه نقطة بياض واحدة، حتى وإن ركزت عينيك طويلاً على أي نقطة، لن تتضح ولن يخرج من قيحها إلا الأسود. غامت نفسي ومالت رأسي أكثر، فغُصت في السواد الحالك لمدة لا أعلمها إلى أن تلقفتني يد لم يميزها جسدي، وقذفت بي بعيدًا وكأني كرة بسيبول، لأجد كل هذا النور يهاجم عيني وينتهكها، تلفح حرارته جسدي، تشوي قلبي سخونته، ولكني أعود مرة أخرى إلى السواد الحالك البارد فأتجمد، فترفعني اليد إلى الضياء اللاهب مرة أخرى، وكأني أتأرجح بين هذا الظلام الحالك، والنور الحارق، حتى همد عقلي وجسدي، وانفتحت الستائر على

وجهي فريدة وأدهم اللذين ينظران إليَّ بقلق وخوف متسائلين لماذ رميت بجسدي على فريدة! سعلت فخرج تراب من فمي، نظرت للسحابة الرمادية التي خرجت مني، وكأنك نفضت مرتبة ظلت مركونة لأعوام، ثم اختفت، وقف أدهم وفريدة وفي حركة واحدة وابتعدا عني وقد اختفت من أعينهم نظرة القلق.. وبقي الخوف وحده.

حاولت الوقوف، تجاهلا سقوطي مرتين، استندت إلى الحائط، العطش ينتهك أحبالي الصوتية فلم أستطع أن أخرج أي كلمة إلا بالفحيح، مما زاد الأمر سوءًا وجعلهما يبتعدان أكثر في ركن الغرفة.

تحاملت على نفسي وذهبت إلى المطبخ، ووضعت فمي بأكلمه تحت صنبور المياه، تركت المياه تسير إلى جوفي دون حتى أن أبلعها، جعلتها تزحف لداخلي، ارتوى جسدي بالماء ولكني كنت أريد المزيد وظللت أنهل منها حتى توقف الفيض، عالجت محبس المياه لكنه رفض إعطائي المزيد. خرجت مسرعة من المطبخ إلى الحمام، فلم تقطر نقطة واحدة من أي صنبور، خرجت إليهما وهما يتهامسان.

وقلت لهما بصوتي بعد أن عاد إلى طبيعته:

- **«انقطعت المياه».**

(12)

منظر بشع إثر حادث أليم على الطريق العام واضطررت أن تلمحه وأنت تقود سيارتك، فغزا روحك الألم، وستظل طوال اليوم تستدعي المشهد بكل ما تملكه من ذاكرة، ستحضن أبناءك قبل أن تخرج يوميًا وبعدها بأسبوع، هذا قبل أن تنسى كل ما حدث وكأن شيئًا لم يحدث.

ولكن حين تُسجن مع هذا المشهد وأنت تعلم أن ليس هناك أي طريق للهروب، ستقف وقتها تنظر إلى الدماء التي تتسرب وتحول أطراف الجرائد إلى عجين، وتكتشف وقتها أن قدرتك على التحمل والتعايش أقوى بكثير، حينما لا يكون هناك أي طريق للهرب.

كل ما كنت ترفضه وتتخيل أنه سيقتلك سيصبح الواقع الذي لا فرار منه، ستندهش من تواري الألم مختبئًا أمام وحش ميكانيزم الدفاع الذي سيبخُّ في دمك مسكنًا، لن يشعرك بالألم على الإطلاق، ولكن أيضًا لن يشعرك بالحياة كأثرٍ جانبي متفقٍ عليه منذ البداية.. ألم تقرأ التعليمات!؟

الكُلُّ معك في نفس المأساة الآن والخطيئة مشتركة، ولكنك فجأة تلمح بابًا صغيرًا وهميًّا للخروج، مكتوبًا على يافطته: «ألقِ اللوم على الآخرين»، هو باب صغير جدًّا ولذلك عليك أن تمدد جسدك جيدًا برشاقة ثعبان حتى تحشر نفسك في مدخله، فبدأ أدهم وريم في إلقاء اللوم عليَّ تحت مبدأ أن كل شيء كان على ما يرام حتى أتيت أنا لهذا البيت، فشعرت أن هذا هو الوقت المناسب لاستخدام كارت أخَّرته كثيرًا، وأخرجته قائلة أني علمت بوجود فتاة عاشت هنا من قبل، وقد انتحرت بالفعل في نفس الشقة وفي نفس المكان، فوجهنا مدافعنا أنا وفريدة إلى أدهم ثم شعرنا بضعف حجتنا حيث إن أدهم لم يكن يسكن في هذا البيت وقت الحادثة، شعرت بفزع أن يتم

توجيه المَدافع نحوي الآن، وأنا أعلم أن أدهم أبدًا لن يوجه مدفعه إلى ريم، وكان يجب أن أعطيه حجة قوية، فكان الكارت الأخير، حينما التفتُّ إلى فريدة في حركة مفاجئة تعمدت أن تكون درامية حتى تبهر أدهم وقلت لها:

- «وبخصوص تلك الفتاة يا فريدة.. ألا تريدين أن تخبرينا المزيد عنها وعن سبب انتحارها؟ ومن تكون تلك الفتاة بالنسبة لكِ؟».

رجعت فريدة خطوة إلى الوراء وعلى وجهها شبح ابتسامة، فهمس أدهم:

- « أنا أعلم كل شيء يا سارة عن ريم وفريدة».

إذن فكنت تكذب عليَّ يا أدهم، أنا وحدي في هذا المعركة، وليس لدي اختيار إلا أن أخوضها، ولكن دارت الدائرة مرة أخرى، وكانت تدور بيني وبين أدهم فقط، رغم وعينا نحن الاثنان أنه ليس هناك أي شك أن فريدة وابنتها ريم هما السبب في كل هذا، حتى وإن لم نكن نعي طبيعة اللعنة التي أحضرتاها للمنزل، ولكن -يا للعجب- هناك نظرة في أعينهم تتهمني لسبب لا أعلمه.

جلسنا على الأرض في غرفة ريم منهكين من حربنا الصغيرة، نحدق في اللاشيء بينما تحدق ريم في «الكالورمي»، كلٌّ منا يعيش في عالمه، بينما يجمعنا نحن الأربعة تعبير وجه واحد «التعبير الزيرو».. هدايا ريم وفريدة المتواضعة.

جلست على الأرض ساندة رأسي على الحائط، أحاول إقناع نفسي أن هذا كابوسًا سأستيقظ منه في أي لحظة، ولكن الألم يبدو حقيقيًّا بشكل سباعي الأبعاد، الألم يتجسد هنا هولغراميًّا فيبدو كأنه هو الحقيقي وحياتك الماضية كلها هي الحلم الممل، حلم طويل مستفز.

استسلامي الدائم، ضعفي في مواجهة أي خلاف، وأختبئ وراء ادعاء الطيبة والرغبة في نشر السلام، لو كنت أملك الشجاعة الكافية لكنت غرست أسناني في العديد من الرقاب، أولها رقبة

«نايس». ولكن لأنني لا أريد أن أكون وحيدة، وأريد لكل من حولي أن يحبوني، الأضعف مني أوهمه أنني لا أرى ذلك والأقوى مني أضع له نظارة الانبهار على عيني لأعطيه حق غروره، فيعتبرني من أتباعه ولا ينقلب عليَّ، وليلاً أدعي الطيبة أمام نفسي وأنني شخص قادر على تقبل الآخرين بجميع عيوبهم، ولا أرى بهم غباء أو قسوة.. وأنا في الحقيقة أود إفراغ معدتي عليهم، من روائحهم وكرههم لأنفسهم وجلدهم لذواتهم وللآخرين في سباق محموم على أعلى مراتب الانحطاط، وملء فراغهم بفراغات أكبر، فتتسع حتى تبتلعهم دوامة الحياة في أحشائها.. ولا يستطيعوا العودة.

وقفت ريم وأشعلت بعضًا من النبات المُسبع، لتخفي بها الرائحة القادمة من غرفة الجلوس والتي بدأت تفوح من جثة أشرف، رافضين الإشارة نحن الثلاثة لتلك الحقيقة التي بدأت تنهش في روحنا، سيتعفن أشرف ويتحلل أمام أعيننا، سنرى ما سيحدث لنا في حفلة حية سيقيمها الدود على شرف أشرف، وسيقومون ببناء سور حوله، ويدعون أصدقاءهم، ويمارسون الجنس فوق تقيحات جثته المتعفنة، ويتكاثرون حتى يصبحوا في حجم عملاق، ويبلعوننا دفعة واحدة، هكذا تمنيت.

***

كنت أظن أننا نتغير، كنت أظن أن خروجنا من شرنقة روحنا الأولي إلى العالم ينحت روحنا ونتغير ثم نبقى على هذا الشكل حتى نموت، أي هدف وراء ذلك!! لا بد أن يكون هناك أي هدف، والهدف لاستكمال الرحلة هو أن تعود مرة أخرى إلى نقطة البداية؛ لتغلق دائرة الأمان حولك، وإلا ستصبح عرضة للهجوم من أي اتجاة.

إن لم تعد للنقطة الأولى ستظل تائهًا للأبد.. إلى ما لا نهاية، ستظل تائهًا إن لم تعد وتلتف تلك الدائرة حول جسدك، وتسد أي ثقب قد يُدخل إليك سرسوبًا من الشك أنك أنت الآن كما كنت من قبل منذ البداية الأولى على الإطلاق، لا تدع مجالاً للشك أنك نفضت روحك، فرميت عنها أي نحت أو خدش أو كسر سببه لك أحد، عدتَ للنقطة الأولى، للبيت! ستجد نفسك أخف.

كنت أظن أنني أخطو إلى طريق العودة بفعل ما يجب عليَّ أن أفعله، أن أفعل ما رأيت أبي وأمي يفعلانه، أن أكرر التجربة بكل تفاصيلها، كنت أظن أنني أؤدي رسالتي في الحياة، ثم اكتشفت أنني أسير في اتجاه معاكس لطريق العودة، وكل يوم أبعد أكثر حتى تختفي نقطة البداية، فأنساها وأتوقف وأنسى كل شيء يربطني بالنقطة السابقة، وأي حلم يخص النقطة القادمة، وأتجمد ظنًا مني أن هنا حياتي ومكاني إلى الأبد.

ولكني الآن بعد أن تم حبسي بجدران مرئية لعيني، علمت أن هناك العديد من النقاط القادمة أريد أن أقفز عليها، وأركض من واحدة للأخرى لأعود آمنة إلى نقطتي الأولى، وأغلق دائرتي حولي، أريد أن أخرج من هنا لأستكمل الرحلة التي توقفت عنها منذ أن بدأتها.

توجهت إلى دورة المياه، وأخذت منه ماكينة حلاقة، وتوجهت للغرفة تحت الغطاء، وبعد أن غرست الموسى بشرايين معصمي، وشعرت بهذا الخط الساخن يسير على ذراعي، تلك اللسعة الباردة التي سارت في جسدي إثر حد الموسى، هي أكثر ما أزعجني، خرج الدم ودخل مكانه هواء بارد نفض جسدي من ثلوجته، الغرفة بدأت تهتز وغمامات بيضاء ظلت تظهر فركزت عيني على لوحة فريدة الملونة، شعرت بالرعب والوحدة وقليل من الندم، إلى أن ظهرت تلك الغمامة البيضاء وغمرت كل شيء ثم تحولت إلى ضوء ساطع كأنه شمس ترسل أشعة بيضاء، أغلقت عيني لأتحاشى

أسهم الضوء، وعندما شعرت به يتلاشى من فوق جفنيَّ، فتحت عيني لأجد نفسي على أرض الكالورمي... للمرة الأولى.. وليست أبدًا الأخيرة.

***

بمجرد أن وطأت قدمي تلك الرمال البنية الداكنة، وجدت في ذاكرتي تاريخ «هريما»، وكأن أحدهم قام بتوصيل «فلاش ميموري» برأسي وقام بتحميل كل حكاياتها وتجاربها بصوتها، بث في رأسي تاريخها، وفي روحي آلامها، شعرت أنها صديقة طفولتي، والمراهقة التي ركضت إليها أحكي لها عن أول قبلة، والصديقة التي ألهمتني أهم قرارات حياتي، والحبيبة في لحظات جموح الخيال، فجأة أصبحت هريما هي رفيقة عمري، رأتها روحي قبل أن تراها عيني وهي تقف في نقطة بعيدة عن نقطتي، وجهها ممدود للأمام كطائر تحول إلى إنسان ولكنه فشل في إخفاء آثار جيناته الأولى، فأصبح جسده عبارة عن حلة بشرية، مقطعة تشف الجسد الطائر تحته، إذا فرضنا أن هذا الطير يحل محل ريشه جلد نمر. كم أنت رائعة ومعقدة التركيب ومنحة الخلق الأولى يا هريما.

وجهها أبيض ناصع، مشدود الجلد لم تترك الأعوام الطويلة أثرها عليه.

على رأسها، تاج من فروع الأشجار يحمل النبات الأخضر ذا الرؤوس السبع المتساوية وتحطيه دائرة، أسرعت الخطى إليها وقبل أن ألامسها، أوقفتني برفعة هادئة من يدها أمام جسدها، وكأنها ترسم الحدود المسموحة لي، ثم غمر كلامها رأسي، لم أسمعه، أدركته!

- **«لن تعود حياتك كما كانت بعد عودتك من هنا»**، ما أجمل وقع كلامك على روحي يا هريما مهما كان مخيفًا.

قرأت هي أفكاري:

- «لم تكن حياة رائعة بالقدر الكافي لأفتقدها».

سرت سخريتها كالثلج على قفايَ، قبل أن تؤكدها بابتسامة على بشرة وجهها الأبيض المشدود، صمتت قليلاً وهي تنظر لي، ثم التقطت فرع شجرة بنيًا من الأرض، امتثل ليدها مثل كرباج طيّع، ولفت حولي، وفي حركة واحدة من يدها شقت به ظهري، شعرت برياح تتفجر من داخلي إلى الخارج، نزفت آلامًا ولم تسِل نقطة أحمر واحدة على الأرض، وبعد أن أخرجت كل ما بداخلي، أمسكتني من وراء وضغطت بيدها على كتفي بقوة، ثم نفخت في ظهري، كانت أنفاسها "بالونات" صغيرة طارت إلى صدري، وطارت بجسدي الذي التأم بعيدًا، بعيدًا جدًا، في أبعد نقطة عن الكوكب، حتى بدت الأرض كالشمس وأنا أنظر إليها من شرفة بيتي، وجدت «هريما» بجواري، فوضعت يدها على عيني وهي تغلق جفنيَ، فرأيت الأرض، كما ترى كف يدك الآن بكل تفاصيله، كل شجرة، وكل سيارة مركونة وسارق يحوم حولها منتظرًا الوقت المناسب لينقض، كل شاب وفتاة اختارا شارعًا مظلمًا ليتلامسا سريعًا، كل كلب يجري وراء طفل خائف، وكل قط يقوم بزرع بذرة قطط في أحشاء قطة تموء تحته، أدركت الأرض، وطأت روحي كل حجر وحجر فيها، أصبحت مثلها مثل هريما في قلبي.

ظلت هريما واضعة يدها على عيني لتجبرني على الاستمرار، وقالت:

- «كلها لكِ... ما عدا تلك النقطة السوداء».

ضيقت بؤرة ذهني على النقطة التي تقصدها، فوجدتها بحيرة صغيرة، فقالت هي قبل أن أقولها لنفسي:

- «وأنت تخافين البحور.. إذن... لن تكون هذه هي التفاحة التي ستخرجك من الجنة».

هززت رأسي وهممت أن أمسك يدها لأبعدها عن عيني، فتحركت هي قبلي وتركت جفنيَّ يتحركان لأعلى، لأجد وجه فريدة وأدهم يلقيان بأربع حدقات وثقل نصفي جسديهما العلويين عليَّ، يراقبان بطني وهي تتنفس، ويحكمان الرابط الموضوع على معصمي، حتى يتوقف نزيف الدماء.

لم أسمع كلمةً من كلامهما وهما يجلسان بجواري، كنت راقدة على حقيبة النوم في غرفة ريم، أحدق في الكالورمي، وأنا أرى كل شيء بوضوح الآن، تحاملت على نفسي ووقفت حتى سرت إلى اللوحة التي أصبحت لها أبعاد للداخل، مددت قدمي ودخلت إلى هناك، وكأن "هَريما" وضعت نظارة سباعية الأبعاد على بصيرتي، كان كل شيء مختلفًا وحقيقيًّا أكثر من الحقائق المطلقة في حياتنا العادية، كأن غمضة عيني نقلتني إلى عالم آخر، «ديزني لاند» بالنسبة له عالم كئيب، الألوان هنا كان لها أبعاد ورائحة، السماء خضراء برائحة البحر، والهواء أزرق برائحة النعناع، كائنات بأعين طيبة، تطير وأخرى تسبح في الأرض، فراشات حمراء ضخمة عندما وقفت أمامي واحدة منهم ونظرت في عيني، كانت في مثل طولي، ووجهها هو وجه الفتاة التي رأيتها في حوض الاستحمام بمنزلي، فردت جناحين رسما ظلاً حولي، ثم طارت بعيدًا، فعبر من بين قدمي بط أزرق بحجم كلب كبير، له أهداب طويلة، يجدف بها في الماء حين يصل إليه، الأشياء أمام عيني كلها كبيرة ولكنها خفيفة، الكون مزدحم حولي ولكنْ كلٌّ يسير في مسار يعلمه، سرب القطط الطائرة لم يصطدم بسرب الحمام الذهبي أبدًا.

شعرت بجسدي يطفو في رأسي، يطفو ويطفو حتى انضم لتلك الكائنات، نظرت إلى يدي وجدتها جناحًا، مررت من فوق صفحة ماء، فرأيتني نسرًا، ريشي ذهبي يضوي كأنه ذهب خالص، طرت إلى أعلى نقطة استطعت الوصول إليها، طرت كثيرًا وسط كل

الكائنات الرائعة، ورأيت قلبي يطير بجواري، كطفل لم يمسسه الحزن بعد، الموسيقى كانت تنبعث من كل شيء، الأشجار عندما استلقيت عليها، جعلت فروعها مريحة لمؤخرتي وكأنها وسادة تعيد تشكيل نفسها حسب معايير الجالس، ثم التفَّ أحد فروعها وناولني ثمرة بيضاء، جسدها أنثوي، وبها نقاط حمراء صغيرة، شممتها، فغسلت روحي، قضمت منها؛ فأسكتت جوع روحي للحظات، سال عسلها عليَّ، فروت ظمأً للحياة دام سنين، تناولتها كاملة وطرت مرة أخرى بانسيابية أكبر بعد أن تدربت روحي جيدًا علي فيزيائية المكان، عقدت صداقات مع الحمام الذهبي الذي ذكرني بالراقصين في عالمنا، لعبت مع البط الأزرق الذي وجد الكسل متعته في هذا العالم، حتى وصلت بتحليقي فوق البحر الأزرق الداكن، الذي منعتني "هريما" من الاقتراب منه مقابل تلك المنحة، خوفي من المياه لم يجعل لذة الوصول إلى الممنوع تداعبني، فحلقت بعيدًا، رحبت بي كل الكائنات التي لا أعرف هويتها علي أرض الواقع، ولا أريد أن أعرف، كانوا يعلمون أن كل مستجد على المكان معه إذن دخول، فهو واحد منهم، بعد ساعة بتوقيت الواقع وأعمار بتوقيت عالمي الجديد، الكالورمي، شعرت أنني أنتمي إلى هنا، وددت ألا أفتح عيني للأبد، داخلي امتنان لـ«هريما» رغم جفائها معي في لقائنا، هريما التي أعطتني الحياة كما أريدها عندما قررت أنا التخلي عنها.

حفظت طريقي هنا بين كائنات لم نتبادل كلمة واحدة ولكننا فهمنا ما يدور في أسرارنا، لم يكن لدى أحد منَّا ما يخجل منه؛ لأنك هنا لا شيء سوى وجودك الحالي، لا تتذكر شيئًا ولا تدرك شيئًا إلا ما تراه عيناك، ليس هناك أسئلة تطرحها على نفسك لتعذبها، هُنا اللذة خالصة المنغصات، كأنك تقف في مركز دائرة، والكل يدور حولك، وأنت ثابت بعيد جدًا عن النقط المكونة للخط الدائري الدائر

بلا توقف، ويفصلك عنه الفراغ العامر بالاحتمالات والذي يمتلئ بالتدريج بكل ما ينقع روحك في السلام، لا يمكنك أن تكتفي من كل الألوان الحية، الألوان هنا تسير وتركض وتعوم، وتتقافز على بعضها لتخرج لونًا جديدًا يطير بعيدًا يسكن سحاب السماء ذات الأبعاد السبعة، وكأنها كريستالة خضراء منحوتة على سبعة أوجه، ننعكس نحن على كل تلك الأوجه، فإذا نظرنا فوقنا، رأينا أنفسنا نمد أيدينا إليها وهي تمد لنا أيديها لتلتقطنا، ينفجر السحاب فجأة وتمطر ألوانًا تراها للمرة الأولى، ليس لها أسماء في عالمنا، تتجد خلايا مخك لرؤيتها، ويطيب لروحك طعمها، تشعر أنك خفيف، أخف من قدوم الأحبة، فتعيش وتطير.

***

بعد مرور أيام لم أحصِها، كنت أجلس في نقطتي، أتناول ثمارًا من شجرة بجواري، في كل مرة تطرح ثمرة جديدة، أنظر إلى نفسي في السماء، وأتأمل انعكاس البقعة الداكنة المحرمة وأقيس المسافة بيننا، والتي تبدو بعيدة جدًا، في حين أنها قريبة كذراعي لجسدي، المسافات في هذا العالم توترني، كبابٍ شفاف تسير تجاهه بثقة فتصطدم به، مع الفرق أن هنا لا شيء يصدمك، فقط يحتويك، في تلك اللحظة وجدتها واقفة أمامي، تلك الفراشة الحمراء التي استقبلتني في يومي الأول، كان جسدها الممشوق بين الجناحين يشبه تمثالاً حاول صانعه محاكاة الجسد البشري، فلم يوفق، فبدا كجسد غير كامل يسيل عليه لعاب عشاق السريالية.

فهمت من وقفتها المتأهبة أنها تريدني أن أذهب معها، طرت معها بعيدًا حتى وصلنا إلى بنايات مثلثة تشبه الكهوف، وقفت هي علي باب أحد الكهوف ونظرت لي في عيني ثم طارت بعيدًا، ذهبت إلى هذا الكهف ودخلته، كان واسعًا فارغًا إلا من زلعة صغيرة بها ماء داكن يطفو فوقه أربعة من نبات المُسبّع، التقطت الأربعة من مياه

الزلعة وأمسكتهم في يدي وخرجت من الكهف وأنا لا أفهم لماذا دلتني على هذا المكان؟ من الواضح أن هذا العشب له أهمية في هذا العالم وعالم هريما، وله قدسية لا أفهم سببها، هل هو بالفعل يمنحنا القدرة على التنقل بين الأبعاد والعوالم! احتفظت به على أي حال، وبعدها بأيام وجدت تلك الفراشة تأتي لي مرة أخرى وأنا أتقافز فوق بعض الأشجار البنفسجية، هبطت أمامي وناولتني شريطة شعر زرقاء، شكل الشريطة ولونها الباهت بث في روحي حنينًا لعالمي الخرِب، تركتها في يدي دون أن تخبرني عما سأفعله بها.

***

فتحت عيني، فاخترقها الضوء القادم من المصباح، حاولت تحريك جسدي ولكن عضلاتي لم تستجِب سريعًا، في حين طقطق عظمي صارخًا من تحميل جسدي عليه في الفراش كل هذا الوقت، هاجمني ألم بأمعائي يصرخ جوعًا، وتجيبه مثانتي مستجيرة أن أفرغها، ووجدت حول معصمي الآخر الشريطة الزرقاء ملفوفة، وفي يدي الأخرى نبتة المسبَّع، ونظرت إلى الكالورمي، فوجدتها تبتسم لي، بينما ما زالت جثة أشرف ترمقني من زاوية الباب بخواء.

(13)

الكالورمي.. تلك اللوحة التي كانت تحدق فيها فريدة كلما أتيت إليها، أنا أرى ما كانت تراه الآن، أستشعر زهدها يتسرب إلى دمائي، ودماء أشرف أغرقت الأرض، تدفعتي للهروب إلى الكالورمي، بل العودة إليها، هل يجب أن أضع لمستي على الكالورمي لتشبه عالمًا خاصًّا بي، عالمًا أكثر سلامًا من عالم فريدة على أرض الكالورمي. التقطت الألوان وتركتها تلهو وتلعب فوق لوحة الكالورمي الخاصة بفريدة، وحين أمر بيدي بلون فوق الآخر أتركه يسير ببطء حتى أتابع الحكايات التي تنسجها الألوان، مع كل حركة أخطها إلى أعلى أو أسفل أو حتى في دوائر؛ تمتزج الألوان لتتجسد وجوهًا أفتقدها وأحلامًا تخليت عنها، وأحلامًا تخلت عني، ونقطة بعيدة ساطعة تبشر بالجديد، تبشر بنشوة المتعة الأولى، الخطوة الأولى وأنت طفل والكل يصفق لك بفرح، النجاح الأول، القبلة الأولى، الأمر لا نهائي، باحتمالات لا نهائية، قد تضع لونًا رابعًا وخامسًا وسادسًا، قد تنظر إلى اللوحة بعين وأنت مغلق الأخرى، فترى ما لا تراه بعينيك الاثنتين، ولا يعكر صفوك سوى صوت الجدال الدائر بين أدهم وفريدة على شيء لم تميزه أذني، الصخب الذي يسبق الاتفاق على قرار مصيري، نظرت إليهما من فتحة الباب الموارب، يبدو عليهما الإجهاد، تبدو عليهما النحافة، يبدوان كشخصين لا أعرفهما، وجثة تنوي التعفن في أقرب فرصة. المشهد كله يبدو ككابوس يطل برأسه العفِن على عالمي ليفسده، عالمي الجميل الهادئ على أرض الكالورمي.

في النهاية؛ صراخ أدهم نجح أن يخرجني من الغرفة، كان صوت صراخه يتقافز على طبقات صوتية فقَد صاحبُها السيطرة على نفسه، ببطء وبما تبقى في جسدي من طاقة متهالكة، خرجت إليهما،

فوجدتها جاثية على ركبتيها التي لطختها دماء أشرف، ممسكة سكينًا في يدها، وتنقب في جسد أشرف بها، بينما يقف أدهم في ركن الغرفة بعيدًا يرتجف كفتاة صغيرة يطاردها كلب مسعور، في حين وصلت فريدة لمبتغاها، فتركت السكين جانبًا، والتقطت قطعة لحم حمراء يبدو عليها الطيب، وأزاحت بأصبعها شيئًا عنها، وقضمتها.

ركض أدهم إلى دورة المياه بينما وقفت أنا أتأملها في شماتة، بينما كانت مغمضة عينيها وتمضع.

الجوع!! كم من الأيام مر ليصل إلى هذا الحد في جسد فريدة، عدت إلى الغرفة التي أتاح لي مرضي الاستيلاء عليها، وجلست في الركن أتأمل هدوئي بفزع لا أشعر به ولكن أراه بعيدًا من وراء ستار البلادة الذي أسدلته، يلوح لي بيده، يحاول أن يصل إلى قلبي، ولكن البلادة بنَت سورًا حولي وعلته عشرة أدوار دون تصريح مني.

دخل عليَّ أدهم وهو يرتعش، عينه مليئة بالدموع كطفل نسيت أمه أن تأتي لتحضره من المدرسة، خلع قميصه الذي يبدو أنه تلطخ بما تبقى من أمعائه وهو يفرغها.

- **«هل عادت المياه؟»**، سألته حين لمحت البلل على شفتيه.

- **«لا.. إنها بيرة».**

جلس بجواري على حقيبة النوم وهو تفوح منه رائحة الشعير والكحول النفاذة، ولكنها كانت أطيب من الرائحة العفنة التي عبقت الشقة، المنبعثة من جنون فريدة، أكثر من جثة أشرف.

أدركت أن جسده ينتفض عندما لامس ذراعي، الخوف والجوع والعطش انهكوا ما تبقى منه، لففت ذراعي حوله، فاستجاب بجسده كله وتكوم في حضني وكأنه كان ينتظرها، بكى كثيرًا وأغرق وجهه بالدموع، رفعت وجهه بيدي أمام وجهه وشربت بطرف

شفتي النهر المالح المنهمر من عينه، فضمني إليه، ونام... أغلقت عيني.. وقفزت داخل الكالورمي.

(14)

وطأت قدمي أرض الكالورمي، فاحتضنت قدماي وكلما بدأت أغوص في عوالمها ينتفض جسد أدهم وهو نائم فيخرجني منها، سللتُ نفسي منه، وجررتُ قدمي أنظر من فتحة الباب الصغيرة على فريدة، فوجدتها متكومة في ركن غرفة الجلوس في نقطة بعيدة عن جثة أشرف ونائمة. خرجت بهدوء ذهبت إلى دورة المياه، وضعت بعض البيرة التي تركها أدهم في فمي، كان طعمها مُرًّا مالحًا وكأنها عفنة، ثم أدركت أن فمي المغلق كل تلك الفترة هو العفن، والألم الحارق في ظهري عندما تأملته في المرآة فوجدت قرحًا صغيرة بدأت في الظهور، صفعني جسدي بالحقيقة الوقحة علي قفايَ، وأنا ما زلت أسيرة، وما زلت هناك وليس «هنا» على أرض الكالورمي التي أحببتها، صرخ جسدي بكل احتياجاته وجرني من طرف ملابسي وأوقفني أمام المرآة لأري كم أنا ضئيلة، لأرى كم السماء بعيدة الآن لا أستطيع أن أرى نفسي فيها، لماذا يحوم الحزن حولي ولا أجد طاقة لأشعل نارًا تبعده؟ لماذا أشعر أن الحل صعب جدًّا في حين أني لو أغمضت عيني خمس دقائق متواصلة، سأنتقل إلى نقطتي، في المركز بعيدًا عن دائرة الأسئلة التي أدور فيها الآن؟!

وأنا هناك –على أرض الكالورمي- كنت أظن أنني لا أتذكر شيئًا عن ألمي، ولكن عندما عدت للواقع، أدركت أنني أتذكر كل شيء أثناء وجودي هناك، ولكن ما يحدث في الكالورمي، هو بعد تذكري بأقل من ثانية لهذا الألم؛ تلهي عيني شمسًا جديدة في المكان، أو طائر يهبط أمامي فجأة، فكنت أنسى، فتشفى روحي، ولكني أتذكر مرة أخرى ويهاجم الألم جسدي يحطمني، كأنه يقع عليَّ للمرة الأولى وكأني لم أعتده، الصرخة الأولى في ميلادي وسيف الهواء

يشق صدري، أول خيانة، أول فقد، أول كل ألم يهاجمني من جديد، أنهك وأرتمى على الأرض، تمر قطة بحجمي وتنام بجواري وهي تقرقر، أنسى كل شيء وتشفى روحي وأعود كطفل صغير، ولكن بعدها بقليل تهاجمه آلام أكبر من عمره، وأتذكر!

وتدور الدائرة حتى اهترأت روحي من الداخل، بينما تبدو للناظرين من بعيد جديدة نابضة بالحياة، ويضع الألم بصْمته بجرح طولي على عمودي الفقري.

***

دائمًا ما كنت أتساءل لماذا لم يظهر الله وجهه لنا، واختار أن يتجلى لنا في كل الأشياء! والإجابة جاءت لي الآن فقط، لأن الله يعلم! يعلم أن الإنسان ملول، سيعتاد صورته، سيكبر وهو يرى صورة معلقة على حائط أسرته المتدينة، سيتبروز الله في عقله في تلك الصورة المحدودة، سيضعها في سلسلة برقبته، سيهديها لأصدقائه في المناسبات الدينية، ومع الزمن، سينسى الإنسان الغرض الحقيقي من وجود رب، وكأنه أثبت إخلاصه له بتعليق صورته في رقبته.

الله أراد أن نراه في كل مرحلة مختلفة من عمرنا بشكل مختلف، مشيئته أن يكون داخلنا وليس مجرد صورة معلقة على الحائط، أراد أن ينقذنا من الملل ويترك لنا شيئًا واحدًا نستطيع أن نصب عليه كل رغباتنا وآمالنا في الحياة، ستظل الجنة هي الحلم، سيظل الله هو الملاذ، سيظل الرب هو النجاة، ولذلك لم يُظهر لنا وجهه، حتى لا نمل، كما مللت متع الكالورمي.

وفي لحظات اتخذت قراري.. يجب أن أقطف التفاحة المحرمة، يجب أن أغزو البقعة السوداء في الكالورمي، وبعد القليل من الوقت رأيتني أمام محيط، أقف على شاطئه، يمتد خضاره فلا أرى له نهاية، يموج ويتحرك ويثبت لساعات أخرى، لا هو ماء ولا هو يابس هو مزيج بين الاثنين تراه عيني للمرة الأولى، وكلما تحركت

مقلتي، غسل الأخضر ماء عيني، ارتوت خلايا مخي بماء جديد، فطرحت روحي أشجارًا، مدتني إلى أسفل الأرض، ورفعتني عاليًا أحتضن السماء المُسبعة، امتدت فروعٌ من الأرض الرملية أسفل قدمي، تلتف حولي، تغرز أطرافها في حركة واحدة بعروقي، وتسحبني، وأنزف ألمًا حتى آخر قطرة في دمي، حتى آخر رمق في روحي، وكأنه تم حقني بحقنة بنج كلي وأنا واعية، تطفو روحي، وتطير، أكتشف أنني لا أطير، لأنني أعوم حيث أغرق الماء كل شيء من البداية، ولكنها كانت هواءً على صدري، أطير وأقفز وكأن قوانين الجاذبية لم تزُر جسدي يومًا.

وتلك هي المرة الأولى التي قابلت فيها «أبيب»، بعد كل ما علمته عنه في تاريخ «هَريما»، بعد كل ما أورثته لي عن إحساسها باليوم الأول الذي قابلته فيه؛ كان وجوده أمامي شيئًا غير قابل للتخيل قبل أن تختبره للمرة الأولى، لأنه لا يتكون من معطيات قابلتها من قبل في الحياة، إحساسي به هو شيء لم أتخيله من قبل، فهو يتكون من مواد خام، لأشياء صنعت مرة واحدة، واستخدمت معًا ليكون الناتج هو «أبيب».

إذا أسعدك الحظ يومًا وقابلته، فستجد صعوبة أن تناديه أو تصفه سوى باسمه، وربما بعد زمن يصبح اسمه فعلاً.

كان يعوم بعيدًا، في ثوبه البشري، الذي اختاره بعناية، نسب الطول والعرض لجسده ذهبية، بمقاييس كل المعايير الأوليمبية، عندما رآني؛ عام تجاهي وسحب وراءه شعره الطويل الأسود الداكن، وضعت عيني في عينه، وبجسدي رعشة تخلق ذبذبات وتصنع دوائر مائية حولي؛ من سرعة دقات قلبي.

كنت أعلم أن هذا ما حذرتني «هريما» أن أفعله، كان الشيء الوحيد الذي طلبته مني في المقابل، كان الشيء الوحيد الذي حرَّمته عليَّ، يبدو أن هريما كتبت التاريخ، ولكن كان عليها أن تقرأه جيدًا،

قبل أن تطلب مني هذا الطلب، اقترب أبيب مني حتى دخل مساحتي الفيزيائية، ووقف أمامي لأتأمله.

جعلني أرى ما وضعته هريما في ذاكرتي، إنني كما وقفت في تلك اللحظة أمام إرادة هريما وذهبت إلى أبيب، وقفت هي منذ ملايين السنين أمام أهل مدينتها من أجل أبيب أيضًا، فمنذ تلك اللحظة التي عادت روحها فيها إلى بيت أبيها، وقد شعرت هريما أنها تائهة وليست في "البيت"، فرح أهلها بها، نصبها أهل المدينة حكيمتهم والمسئولة عن سرد التاريخ، حتى من قبل معرفتهم أنها تملك في ذهنها حكمة أجيال سابقة وأجيال بائسة قادمة، أسندوا إليها مهمة كتابة التاريخ على حوائط المدينة، قضت هريما حياتها بين النحت في الصخور، وبين الذهاب إلى الشجر الطارح ولدانًا، تتأملهم في غصة، حمى التكاثر كانت تعمل بنسبة نجاح مئة بالمئة في مدينة هريما، كانت تشعر بنقص الكمال، للحظة تمنت أن تكون روحها تنتمي لهذا المكان، أن تفرح وهي تجمع الطعام، وتعلم أبناء ليسوا ملكها، تُزرع في الأرض بذورًا وهي وحيدة، حكيمة المدينة، الغريبة عنهم، التي ظن أهلها في البداية أنها أفضل منهم لاختلافها ولكنها الآن ترى في أعينهم نظرات الريبة بعد أن تساءلت في مرة: ولماذا لا تلد النساء بدلاً من الأرض؟ وكان رد الفعل ناريًا وقاسيًا.

أدركت أنهم سيتقبلون الاختلاف المحمود فقط، ولكن الاختلاف الذي يجعلها متمردة في أعينهم فلن يتقبلوه، وزادت الطينة فوق رأسها هي وأبيها الحزين، حينما بدأ جسدها ينبت شَعرًا وتهاجمها آلام في أحشائها، تليها نزيف من مادة سائلة ساخنة متخثرة ترى لونها للمرة الأولى، لون لم يروه من قبل، لون ناري وصارخ.

ظل أبوها ينظر إلى تلك الرؤوس السوداء التي نبتت على فروة رأسها والسائل السائر من فخذيها إلى قدميها غير فاهم، خاف عليها من أهل مدينتهم، ظل يوميًا يزيل لها الرؤوس السوداء النابتة، في

الخفاء ليلاً بمنزلهم، قرر أن يكوي جلدها حتى لا تنبت لها رؤوس سوداء مرة أخرى، لأنها تجعل منها مسخًا بين أهلها، كوى الأب جلدها، واكتوت روحها، وهي تتساءل لماذا اختصها القدر بتلك اللعنة! وفي وعيها كل الإجابات، ولكنها لم تقوَ على الاعتراف بها حتى لنفسها.

في هذا اليوم، جلست على شاطئ المياه، تنظر إلى انعاكسها فيه، بشرتها البيضاء الناصعة، عينها الواسعة الزرقاء، وروحها المبتورة تطل منها، وفجأة اهتزت الأرض من تحتها، هزة بثت الرعب في البلد بأكملها، وفاضت المياه أغرقت المدينة بأكلمها، شعرت هريما بيدين من ماء تمسك قدميها تشدها إليها، تشدها بحنو، صارعت المياه وقبضة اليد على رجليها حتى فتحت عينها لتجد أبيب أمامها، يلف يده حولها، شعرت بقلبها يقفز داخل فمه يتذوقه، التفَّ حولها بجسده، وبلعها داخله، فاستقبلته داخلها، اهتزت لدفئه، انتفضت لمائه الذي سكن روحها وأطفأ آلامها، واهتزت الأرض أكثر فسقطت بنايات المدينة على رؤوس أهلها، اهتزت هريما للوصل الأبدي الذي جمعها بأبيب، وطرحت أرض المدينة ما لم تره من ألوان من قبل، طرحت الأرض أخضر بسبعة رؤوس وطفا على المياه أمام أعين أهل المدينة.

أدركت هريما عندما سحبها أبيب للأعماق، أنها خلقت لذلك، خلقت لخلق عهد جديد، شعرت ببذرة أبيب تسكن رحمها، الرحم الأول في المدينة البُنية، وشعرت ببطنها تنتفخ، وبروحها تنفتح لحياة أخرى غير تلك الحياة، أوصاها أبيب على بذرتهما التي سكنت أحشاءها دون أن يقول كلمة، استطال جسده، وبدا كثعبان جسده من مياه وهو يبتعد عنها ويغوص في أعماق لم تجرؤ أن تلحقه بها، عادت إلى الشاطئ تلملم نفسها، تنظر إلى المدينة التي انهار نصفها، ركضت إلى منزلها لتبحث عن أبيها، فوجدته يقف أمام

منزلهم المتهدم، نظرت له في عدم فهم، فأخبرها أن هزة الأرض هدت جبالاً، وأخرجت بحورًا عن مسارها، لم تعد الأرض كما علمها أهلها، وأن بيت الحكماء انهار وأغرقته المياه، والفوضى عمت كل شيء، لم تدَّعِ هاريما الحزن، فقد شعرت أن كل ما يحدث الآن هو ما خلقت من أجله، هو ما انتظرته سنين طوالاً وهي تجلس وحيدة قرب الحائط تنحت قصصًا ليس لها بها شأن، قصصًا لن يتعظ منها أحد، لا أحد يقرأ ولا يفهم تاريخًا مكتوبًا أو منحوتًا أو موروثًا، كل ما يحدث الآن من دمار هو عمار قلبها، عمار روحها، عمار رحمها، النظام الذي سيبعث من الفوضى.

قصت لأبيها كل شيء، أخبرته أن الرجال لن يذهبوا مرة أخرى إلى فم الأرض ليفرغوا ماءهم فيها، لتطرح الأشجار بشرًا، ولن تكون النساء بلا فائدة، بل سيضاجعن رجالاً، أخبرته عن الذي ظهر في أحشائها، أشارت له إلى بطنها المنتفخة تخبره أن الأطفال سيأتون من هنا وليس من الشجر كما تعود أهلها، أخبرته أن دورة زمنية قد انتهت لتبدأ دورة أخرى جديدة، وأخبرته بما حدث لها مع أبيب... كتم الأب على فمها من ذعره، استحلفها ألا تخبر أحدًا، كان يعلم أنها لا تتوهم، أخذها وخبأها في أحد الكهوف على أطراف المدينة، رغم خطورة ذلك، رغم احتمالية وجود «موشيه» وحش المدينة في هذا المكان، ولكن مواجهة موشيه أرحم لها من أن يراها سكان المدينة ببطن منتفخة وطفل وليد من رحمها.

في هذا الوقت العصيب التي تمر به بلادهم من كوارث، أي شيء مريب أو غريب، سيعتبرونه سبب مصيبتهم، وسبب هلاك وغرق أرضهم، وسيكونون على حق!

جلست هريما أيامًا عديدة في الكهف، تنحت على حيطانه ما يحدث لها، تنحت تاريخ أجيال مضت وأجيال أخرى قادمة، كتبت عن

أجيال هلكت، وأجيال قادمة ستهلك لنفس الأسباب، وُلدت هريما بآلام البشر كاملة دون اختيارها.
دارت أعمار وأجيال في كهفها لا تدري شيئًا عما يحدث بالخارج، لزمت الكهف كما أوصاها أبوها، لا يؤنسها سوى الظلام البني القادم من فتحة الكهف، تفكر كل ليلة في أبيب، تتمنى أن يأتي إليها ويأخذها إلى الأعماق معه فلا ترى أحدًا غيره، لتفرغ بذرتهما بين يديه ويطيروا إلى مكان آخر، وتنشأ بشرية أخرى، بطنها كل يوم تنتفخ أكثر من اليوم الماضي، تنحت على الصخر، تبكي، تنظر إلى السماء البنية من ركن الكهف، اثنان وأربعون ليلة من الوحدة، اثنان وأربعون ليلة من الألم والندم والشك، حتى تجلى الوعي فيها، حتى سمعت صوت عقلها يخبرها بأشياء لم تعلمها من قبل، كان الصوت يتخللها وكأنها تسمع نفسها، ولكنها لم تقل شيئًا في سرها، قوة غامرة اجتاحت عقلها، هزت كيانها، قالت لها:
«الله، عندما حينما سيتوه عنه أبناؤه يومًا ما ويضلون الطريق، يصطفى إنسانًا من بينهم، وفي مرة منهم أول شيء قال له «اقرأ»، على البشر مهما كانت مكانتهم بين أهلهم، أن يقرأوا، وعلى الأرباب أن تكتب، نحن/ أنتِ يد الله في الأرض، وعندما يتجلى الله لنا، يتجلى بين حروف «الكتاب»، الكتاب رب، والكتابة فعل إلهي، ومن يدنسه هم الوحوش والشياطين القادمة من ظلام أطراف المدن، الكتابة لشن الحروب، الكتابة لغسل العقول وشن الفتن، الكتابة من أجل المجد الشخصي وحده، تلك الجرائم قد حُسم عقابها منذ الأزل.
الخلود بين الحروف يا هَريما، النقاط يجب أن تكون من قطرات دمك، اكتبي لهم، أو دعيهم يصلوا من أجلك، واستسلمي للرب الذي سكن قلبك، استسلمي لنشوة سريانة مجرى الدم فيك، لا تتشبثي بالحياة، ولا تقيمي علاقات في محطات مؤقتة، الأبد

الناعم في انتظارك، بعد أن تنتهي من المهمة التي قد أُرسلتِ إليها، تواضعك سيكون خصمك الأول في المعركة، لا تخشي المجد حتى يأتيكِ من أسهل سبله، صدقي أنك ستعزي المجد، أنتِ لا تحتاجينه، بل هو الذي يتوق إليك، هو الذي يريدك فلا تطمعي فيه، فقط استقبليه بهدوء الأرباب، إنه النفَس الذي خرج من صدرك وسيعود بنفس السرعة إذا أوسعت صدرك له، لا تخشي المجد، لا تخشي الكتابة، لا تتملصي من الولادة الأولى، المجد بيتك، وأنتِ تعلمين جيدًا كيف تتعاملين معه، لا تخشيه، ودعي الأشياء تحدث».

أثلج الكلام أذن هريما التي كانت جمرتي نار من الوحدة والتفكير، تمنت أن ترى قائله، كيف يمكن للكلام أن يخرج من داخلها ليدخل مرة أخرى كأنه كلام جديد، كأنها تستدعي شيئًا تعرفه منذ الأزل ولكنها نسيته، صوت عقلها يشبه صوتها ولكنه أعلم منها، احتضنت الصوت وحفرت حروفه على خلايا قلبها دون أن تنحته على حجاره الكهف، جاء لها من داخلها واحتفظت به داخلها ليكون دليلها في الأيام القادمة، احتضنت بطنها المنتفخة والتي أوشكت على الخلق، سألت الصوت بداخلها، عما عليها أن تفعله الآن، رد الصوت «أنتِ تعلمين»، وقتها لم تكن تعلم أي شيء، ولكنها صمتت، شعرت أن هذا الصوت يثق بها، كيف لها ألا تثق بنفسها في المقابل، وفي نفس اللحظة سمعت خوار موشيه من بعيد.

***

موشيه وحش المدينة، منذ سنوات عديدة، جمع حاكم المدينة طاقة الشر وحبسها في كهف على أطراف المدينة، مع مرور السنين تحولت الطاقة إلى مسخ كبير، هو مزيج من كل الوحوش التي يمكن لخيالك أن يبتكرها، جلده شبيه بجلد النمر، له أنياب خمس حادة فتاكة، وثماني أرجل مشعرة كالعنكبوت، عيناه الصفراوان

مليئة بالكراهية والشر الخام، عاشت مدينة هريما أعوامًا طويلة في سلام طالما موشيه حبيس في الكهوف، ولكن هزة الأرض حررته، وهو الآن يحوم حول الكهف الذي تختبئ فيه هريما، تسمع هي خواره الكريه الباحث عن فريسته الأولى، تحيط بطنها المنتفخة وكأنها تحاول حماية وليدها من سماع خواره المرعب، تهتز الأرض لثقل خطواته القادمة، يشم موشيه رائحة هريما، يود الوصول إليها، يريد أن يفتك بها، يمزقها بين أنيابه، ولكن حين وصل إلى كهفها، خرجت له هريما وهي لا تشعر بأي خوف، بطنها أمامها منتفخة، يتدلى ثدياها وقد برزا عن جسدها في الأيام الأخيرة، تنظر لـ موشيه في عينيه بتحدٍ، فيمتد فرع من الأرض ليدها، تمسك به فيخضع لها ككرباج طيّع، يزوم موشيه بغلٍ معلنًا الحرب، تضرب هريما على الأرض بكرباجها مجيبة إياه عن استعداها هي الأخرى.

وفي ثانية التحما في صراع دموي، يغرس أحد أنيابه في كتفها، تصرخ هريما وتناوله صفعة من كرباجها على ظهره، يصرخ موشيه ويناولها صفعة على فخذها من ذيله المليء بالأشواك، تصرخ هريما وتضرب الأرض بكرباجها وهي تبكي، فتطرح الأرض كرابيج أكبر، تلتف حول موشيه، تعرقله وتكتفه، فترفع هريما الكرباج الذي في يدها، وتلفه حول عنق موشيه وتخنقه وهي تصرخ صرخة ترج أرض مدينتها مرة أخرى، تشد الكرباج على رقبة موشيه، يعلو خواره حد السماء، تصرخ في وجهه هريما، فيهمد موشيه على الأرض، يلفظ آخر شراراته، تسيل جمرات من أنفه ومن مؤخرته، يعوى بغلٍ وحسرة على خسارته، وتنهار هريما على الأرض، تهاجمها آلام المخاط، تبكي من الحِمل، تبكي من الفرح، تبكي من الوحدة، تصرخ باسم أبيب الذي حُفر بقلبها دون أن يخبرها إياه، تصرخ، تبكي، تغرق دموعها الأرض فتطرح

مُسبعات بحجم شجر، تتألم هريما وتطرح الأرض أخضرَ لم تره مدينتها من قبل. وفي المدينة يمشي أهلها يحدقون في الأخضر الذي ينبت من كل شيء، ينظرون له بذعر، يضعون حدودًا وأسوارًا حوله، لا يستطيع أحد منهم الاقتراب منه، تساءلوا عن اختفاء هريما، وتنبأوا أن اختفاءها سبب مصائبهم وخرابهم، ضيقوا الخناق على أبيها، عذبوه، نزعوا عنه ثوبه المادي، وهام في البلاد نورًا ساطعًا لا يجد له مأوى، لم يستقبله أحد في منزله، كانوا يسدون الباب والشباك عن أي نور ظانين أنه «ريجيلوس» أبو هاريما، ظل نور أبي هريما يزداد، ويغمر البلد، خافت البلد منه، ظنت أنه سيحرقها؛ لقد سمعوا في الأساطير عن النار، لزموا بيوتهم، وأغلقوا الأبواب ورفضوا الخروج حتى يرحل النور، حتى يشعروا بالأمان، حارت روح الأب هائمة بين البلاد، تنشر النور دون مستقبل أو مُجيب.

رحمة بالأب رُفعت روحه الحائرة المُنيرة للسماء، ليضيء مدينة هريما والمدن المجاورة وكل البسيطة ويكمل معطيات الخلق الجديد، شعر أهل المدينة أن كل هذا عقاب لهم لسبب اقترفته هريما، غطوا رؤوسهم بالأقمشة وطاروا باحثين عن هريما، لتقديمها قربانًا للسماء لترضى الأعالي عنهم، فتشوا تحت كل طوب وسحاب وأسفل كل شجرة وعمق كل ماء، حتى وجدوا هريما قرب أحد الكهوف، تقف وبجوارها جسد موشيه قتيلاً.

الغضب تجاه هريما في قلوب أهل المدينة، تحول في لحظة إلى ذعر منها، القادرة على تحرير موشيه ثم قتله، قادرة على هلاكهم جميعًا، تأملوا هذا النور الأبيض الساطع من الكهف فزاد خوفهم من المجهول، تقدم من تبقى من كبارهم طالبين من هريما الاستسلام، فكان رد هريما أنها التقطت كرباجها وبعدة صفعات سريعة؛ سلخت

جلد موشيه، وأخذت قطعًا من جلده غطت بها قطعًا عشوائية من جروح جسدها العاري، بعد أن عاد لطبيعت بدون بطنٍ منتفخة.
عاد إلى المدينة ركضًا من مزَّع الخوف قلبه، وقف ساكنًا من احتفظ في دمه بقليل من المازوخية، بينما تقدم إليها من ينازعها على حكم هذه المدينة، وقبل أن يصل إليها ضربت هريما الأرض بكرباجها ففتحت بابًا من النار بينها وبين هذا الرجل، رفعت يدها تشير له إلى حدوده القانونية في القرب منها من الآن وصاعدًا، وضربت الأرض مرة أخرى بكرباجها، فأعطاها دفعة قوية إلى أعلى جعلتها تطير إلى السماء بسرعة لم يرَها أهل المدينة من قبل، فانهاروا على ركبهم رغمًا عنهم لتحاشي ما تناثر من فتات الأرض المحطمة إثر دفعتها.
من يومها صارت هريما ربة تلك المدينة وكل الأرض منذ ملايين السنين، الأم الأولى والحاكمة الوحيدة، لم يروها إلا قليلاً، ولكنهم رأوها ليلاً تحوم في السماء تحاول الوصول إلى أبيها الذي سكن ركنًا مضيئًا بعيدًا في السماء، في كل ليلة تفشل في الوصول إليه، فيغيب عنها أبوها يائسًا ويحل الظلام فينعم أهل المدينة براحة بال مؤقتة، بعيدًا عن النور الذي حرق جلودهم، ولكن سرعان ما تحاول هريما الوصول مرة أخرى إلى أبيها، فتستجيب روح الأب، فيعم الضوء المُدن كلها، ويسكن الناس منازلهم، مغلقين النوافذ والأبواب في انتظار الظلام الآمن، ولكن تظل هريما، تحوم وتدور حول الضوء لا تقدر على الاقتراب منه، فتيأس ويعم الظلام، ويخرج الناس ليمارسوا حياتهم.
لم تيأس هريما في البحث عن سبيل لأبيها، بعد أن تخلى أبيب عنها وعاد إلى دياره غير مهتم بدائرة النور التي خرجت من بين فخذيها، اختفى النور الدائري في ظلمة الفراغ ولم تجد له أثرًا، انقسم وهو يطير أمامها، انقسما مبتعدين وكأنهما عدوان يحاولان

تجنب بعضهما بعضًا، انقسم قلبها معهما، انكوى حبلها السري بألم الفقد، تتمنى أن يخبرها الصوت أن وليدها كامل آمن يعرف أين باقيه، لا يدور حول نفسه بحثًا عن جزئه المفقود، هاجمها ألم أمٍ تعلم أن وليدها سيظل جائعًا يصرخ باقي حياته، بحثًا عما بُتر منه، وتطوف وتدور هريما حول السماء، بحثًا عن الأصل، عن الأب، ليخبرها بما عليها أن تفعله، ولكنها لا تصل، ولا يصل وليدها، وتدور الدائرة.

***

(15)

شعرت بأدهم يبحث بشفتيه في جسدي حتى وصل إلى صدري فدفن رأسه بينهما وضمني أكثر، كان يرتعش، أشعر بثقله على جسدي ولا أتذكر متى عدت بجواره مرة أخرى، جسدي ليس به أي طاقة للتحرك.

العطش.. ليس عطش يوم دراسي طويل في عز الحر، ولا عطش صيام الصيف، ليس العطش الذي نعرف أنه سيتنهى.. فننساه قليلاً حتى نخرج من الفصل، حتى يؤذن المغرب، ولكنه العطش الذي ليس له «حتى»، فلا أستطيع أن أفكر في أي شيء سواه، فقدت الإحساس بالوقت، أحبالي الصوتية تتشقق، تتسارع أنفاسي فيجفف هواء صدري ما تبقى من ريقٍ في فمي، فيزداد عطشي أكثر، قلبي يجري سريعًا، يطارد شيئًا ما، ولكنه عندما يعلم أنه ابتعد يقف ليلتقط أنفاسه ضامنًا الخسارة، وعندما يهدأ يتذكر مطاردته، يجري مرة أخرى، غارزًا أقدامه في أحشائي.

- **«عطشانة»**، قلتها بهدوء لا يليق مع وجعي.

نهض أدهم وهو يقول:

- **«سأري إن عادت المياه».**

عندما عاد كان في يده زجاجة بها سائل شفاف، فأخبرني أنه ليس هناك مياه، ولكن هناك «تكيلا»، أخذتها من يده وظللت أعبُّ منها دون أن أتنفس ولا أشم رائحتها، سرعان ما شعرت أن هناك صاروخًا لاذعًا عبر من خلال رقبتي، أشعل نارًا في أحشائي، ولكنه أطفأ قليلاً من العطش، ليشعله بعد عشر دقائق بشكل مضاعف، ومع ذلك ظللنا نعبئ بداخلنا ما نستطيع أن نجعله يمر من حلوقنا. عندما سألته عن ريم، أخبرني أنها وجدت ثعبانها

وتجلس به في حوض الاستحمام عارية هي والثعبان لأنها تشعر أن جسدها ساخن، هززت رأسي بأنني أفهم.
ظل يشرب أدهم كثيرًا من الزجاجة فاخبرته أن يدخرها لو احتجنا المزيد، فأخبرني أن هناك المزيد، تناولت من جواره الشريطة الزرقاء هدية الفراشة الحمراء ولففتها حول معصمي، وأمسكت بعضًا من المُسبع وناولت أدهم واحدة وبدأت في مضغها، مضغها أدهم دون أن يسألني عن شيء، في كل الأحوال سيكون أي شيء أفضل من أحشاء أشرف.
فجأة سمعت أدهم يقول:
- «كم أحبك وأحتاجك يا سارة!».
نظرت إليه بدهشة فوجدته يمضع النبات ويجرع من زجاجة التكيلا، ظننت في البداية أنني أهلوس ولكني سمعته دون أن يحرك فمه، أدركت صوته في رأسي كما أدركت صوت هريما من قبل..
سمعته يقول من جديد:
«كنت أخشى أن أكسرك، ولكني أحببتك، أحببت الجلوس بجوارك وأحببت رائحتك.. مثل طبق الفاكهة الطازجة، ينعش روحي ويشعرني بالسلام، أحب رائحة المنزل عندما تعدين لنا الطعام، أحب مظهرك وأنت تعملين بإتقان في المطبخ وبتركيز تام كأنك تفعلين أهم شيء في حياتك، وعندما ترين نظرات الاستحسان على وجوهنا دليلاً على جودة الطعام، تخفين وجهك الجميل في المائدة وتضعين يدًا تحت فخذك، ويزداد وجهك احمرارًا كلما شكرنا في الطعم، أحببت سذاجتك وأنت تخفين دموعك عني عندما تفتحين لي باب منزلك وأنت مدعية النوم كمبرر لانتفاخ عينيك، أنت يا سارة مثل قطعة الحلوى التي أخشى أن آكلها ولكن أريد أن أراها أمام عيني في البيت طوال الوقت، موضوعة على المنضدة، تنظر لي كلما مررت أمامها وأنا أعلم أنني في يوم من الأيام،

سأقيم طقوسًا مقدسة، وخاصة جدًا، وسأستلقي على ظهري، باسترخاء، مغمضًا عيني، لألتقط تلك الحلوى، أفض ورقتها بهدوء واستمتاع، وأبدأ في أكلها قطعة قطعة بهدوء، إنما فريدة مثل الحشيش، لا حلوى تحل بدونه!».

نظرت له وهو ينظر للحائط سارحًا، وهناك دموع متجمدة في عينيه، فوضعت يدي على فخذه وقلته له:

- «ما رأيك أن تحضر زجاجة أخرى وننادي فريدة.. علينا أن نسامحها.. كل ما حولنا يدفعنا إلى الجنون.. فكيف نلومها؟».

دون أن يرد وقف سريعًا وكأنه كان ينتظر مني هذا الاقتراح، وبعد قليل عاد بفريدة وبزجاجتي تكيلا بينما رفضت فريدة أن ترتدي أي شيء، ولم يفكر أي منا في إقناعها.

جلسنا أنا وفريدة وأدهم نلحس الملح عن أجسادنا ونشرب التكيلا، وعندما انتهينا من الزجاجة الثالثة، أصبح كل شيء ممكنًا... ما الذي قد يمنعه الواقع في حين أن خيالك قد جعله ممكنًا؟!

رقصت التانجو مع بطوط وقبلت جوني ديب قبلة فرنسية، طرت إلى الهند ومتُّ آلاف المرات وبعدها عشت كما لم أعش من قبل، الحياة والموت أمر نسبي بدرجة مخيفة، عشت أزهى لحظات حياتي وأنا أخطو نحو الموت، ومت ألف مرة وأنا أسعى للحياة، أين الحياة والموت؟ الإجابة خيالنا فقط، وأنا الآن أعيش أكثر قصة حب مثيرة عشتها في خيالي، بيني أنا وأدهم وريم، لجزء من الثانية شعرت أني وأدهم وفريدة شخص واحد ينعم بالاكتفاء.

ولكن بعد أن استلقينا على ظهورنا فاردين أطرافنا وكأننا ثلاث نجمات على شكل مثلث، تتلامس أطرافنا راسمة دائرة في محيط المثلث الوهمي، مددت أصابعي قليلاً أتحسس ذراع أدهم، فدوى صوت ريم في ذهني: **«إياك أن تفكري في هذا وإلا سأقتله»**، حاولت أن أدير رأسي إليها حتى أرى إذا كانت قالتها مسموعة أم

في سرها، لم أستطع أن أحرك رأسي وكأن عظام رأسي تحولت إلى حديد ثقيل، أغمضت عيني وتحدثت إليها بصوت هامس شق طريقه بصعوبة خارج صدري:

- **«إنه لا يخصك وحدك.. كذلك أبيب».**

في لحظة وجدت فريدة تقفز فوقي، وبدأت في ضربي كما كانت تضرب السيدة العجوز بالضبط، لم أستطع تحريك جسدي، فوجدت أدهم يزيحها من فوقي ويرمي بها بعيدًا، ثم ضمني إلى صدره بقوة، فبللت كتفه بالدماء التي خرجت من وجهي، خبأت رأسي في صدره حتى لا أرى وجهها، بينما قرب هو شفتيه من جبيني ووضع عليه قبلة مبللة من دموعه وهمس في أذني «أنا آسف».

تركت دموعي تبلل وجهه وهو يقبلني باحثًا عن هواء نظيف في صدري في تلك اللحظة انقطعت الكهرباء وعم الظلام كل شيء.

أطلق أدهم سبة وتشبثت به أنا أكثر، ظللنا منكمشين في الظلام لا نسمع أي صوت قادم من النقطة التي تجلس بها فريدة، صمت تام وظلام صريح لا يسمح بدخول الخيالات أو شعاع ضوء صغير.

أخبرني أدهم أنه ذاهب للمطبخ حتى يحضر الكشاف الصغير، فتشبثت بذراعه وذهبت معه، اصطدمنا في طريقنا بجثة أشرف ووقعت أنا فوقه وشعرت بتلك المادة اللزجة تلطخ وجهي، صرخت بينما أدهم يشدني محاولاً تهدئتي، عدنا إلى الغرفة ونحن نسير ببطء خلف الضوء الأحمر الضعيف الذي يمتد من الكشاف أمامنا، رأينا قدم فريدة علي الضوء الخافت الملقى على الأرض، كانت قدماها ملقاة على الأرض تصارع يمينًا ويسارًا وكأن باقي جسدها يقاوم شيئًا ما، اقترب أدهم بحذر ووجه الكشاف إلى وجه فريدة الذي كان يختنق كأن شخصًا يطبق بأصابعه حول رقبتها، تعافر بقدميها ورأسها فقط وجسدها كله متجمد.. عيناها مغمضتان لا تحرك مقلتاها فيبدو هدوء جفنيها كأنها نائمة.

اقترب أدهم مسرعًا وكأنه تذكر شيئًا، وهزها وهو يناديها فلم ترد، فرفع رأسه إلى وقال:

- **«ريم تخاف الظلام».**

Noctiphobia!! إذن لديك نقطة ضعف يا ريم.. كنت أظن أنني لن أجدها أبدًا.

هدأت فريدة بعض الشيء، بينما ظل أدهم جالسًا بجوارها يوجه الكشاف على وجهها، فاقتربت منه وأمسكت الكشاف وأخذت مكانه، حتى يريح ذراعه قليلاً، حاولت أن أنسق بعض الكتب وأضع الكشاف عليها ليواجه فريدة، ولكني شعرت بها تمسك بمعصمي بقوة جعلتني أصرخ:

- **«من أين أتيت بهذه الشريطة الزرقاء؟!!»**، قالتها وهي تشد الشريطة على الجرح الذي لم يلتئم بعد في معصمي.

اقترب أدهم وخلصني من يدها ولكنها لم تفلتني إلا عندما أخذت الشريطة، تأملتها، ولأول مرة أرى ريم تنفجر في البكاء، صاحبته بصراخ أثار رعبي ثم أعقبته باللطم على خديها، سال اللعاب والمخاط من وجهها، وسمعتها تردد في سرها دون توقف:

- **«يا ريم ! يا ريم».**

بينما وقف أدهم ينظر إليها باندهاش وكأنه يكتشف أن فريدة بشرية مثلنا، يمكن أن يسيل اللعاب والدموع من وجهها، إنها إنسانة قد تتعرض للانهيار!

اقتربتِ منها لأحتضنها ولكنها أبعدتني بعنف وهي تسبني وظلت تبكي حتى نامت.

***

بدأ العطش يهاجمني مرة أخرى، الاختناق يطبق على صدري، لم أسمع صوت أنفاسي بهذا الوضوح من قبل، أنا أسمع صوت احتكاك الهواء بصدري، كل حركة صغيرة تبدو واضحة الآن،

صوت نفسك يا أدهم ونفسك يا فريدة، أستطيع أن أخبركما من صوت تنفسكما أنكما غاضبان ولكنكما صامتان. أنا أستطيع سماع الغضب والحزن يتجمع في أنبوبة صدريكما يوشك على الانفجار.
أستطيع أيضًا أن أسمع أقدام رجل يجر قدمه في الشارع الآن، صوت قدمه يبتعد سيذهب هو الآن إلى بيته وسط أهله تحت إضاءة كاملة وصوت التلفاز المزعج.. سيصل الآن إلى الحياة، ونحن مساجين نفكر فيها فقط.

- «نحن مثيرون للشفقة يا فريدة.. أنتِ مثيرة للشفقة بكل نظرياتك عن الحياة والعوالم الأخرى والدورات وكل هذا الجنون الذي تعيشين فيه، وأنت يا أدهم مثير للشفقة بأفلامك الخاوية وعلاقاتك النسائية وكأنك تريد أن تخبر نفسك أنك رجل، وأنا مثيرة للشفقة لأنني تخيلت للحظة أن «نايس» يحبني.

أتريدين الحقيقة يا فريدة؟! هذه هي الحقيقة: نحن لسنا سجناء، نحن مثيرون للشفقة، نحن هنا بإرداتنا الحرة لأن ليس لدينا أي شيء آخر سوى الوهم الذي نختبئ فيه. كل هذا وهم!». كنت أتحدث بهدوء وبطء.

فتح أدهم ذراعه لي وقال: **«تعالي يا سارة!».** تكومت بين ذراعيه وفكرت في النوم.

ولكن ريم قالت:

- «وما هي الحياة التي تريدين عيشها بالخارج يا سارة، البحث عن زوج في كل رجل تقابلينه ثم يحبطك وتنهارين ثم تعيدين الكرَّة في ثاني يوم؟!».

- «ربما.. ما المانع! إذا كانت تلك هي الحياة التي أريدها، أن أكون مثل أي امرأة أخرى.. أنتِ لا تعانين من تلك الأزمة يا فريدة، الرجال والنساء يرتمون تحت أقدامك، منبهرين بكرهك واستعلائك عليهم، وأنتِ تحبين ذلك... أنا أحببتك لأنك كنتِ لطيفة

معي.. لم أحبك لأني وجدتك فريسة صعبة أريد الوصول إليها كما فعل أدهم».

- «لا تورطوا أدهم في هذا أكثر من ذلك». قالها أدهم بنفاد صبر.

- «لقد أحببتك يا فريدة لأني حرة.. أنا لست عبدةً لهواجسي مثلكم»، صرخت فيها.

- «حقًّا.. حقًّا يا سارة.. أنت الملاكُ السويُّ نفسيًّا هنا.. سارة يا صغيرتي! البشر لا ينشغلون بما يحبونه وبما يريحهم، بل ينشغلون بما يجرحهم ومن يرهقهم، لذلك أحبني كل الرجال، حتى أنتِ أحببتني لهذا السبب لأني أثرت النفور فيك، حتى ابنتي التي تركتها أحبتني وقتلت نفسها حين لم أبادلها هذا الحب، ولكن أنتِ لم يحبك أحد.. ولذلك يرحلون عنك دائمًا.. لأنك لطيفة أكثر من اللازم.. أوتعلمين ما هو الأسوأ يا سارة! أن هذه ليست حقيقتك من الأساس، أنك فقط تضعين طبقة من الشيكولاتة فوق الخراء ليبدو شكله ألطف، ولكن اللون البني الخارجي، لن يمنع من يقترب منك أن يشم رائحته.. ولذلك رحل نايس عنك.. لأنه يدرك أنك مدعية».

- «كفي يا فريدة!»، قالها أدهم لها بحذر.

- «لا لن أسكت.. هل تعلمين يا سارة ما هو الأهم على الإطلاق.. أن تكوني سعيدة... هل أنتِ سعيدة!! بالطبع لا! وفي المقابل لم تسعدي الآخرين أيضًا.. عشت طوال حياتك تبحثين عن الرضا في إسعادك للآخرين.. هل تعلمين شيئًا مهمًّا... هم لا يهتمون.. إنهم ينسونكِ بمجرد رحيلك وهذا السباق المحموم لإرضائهم ليس له مكان إلا في خيالك.. لا أحد يتذكرك يا سارة، لن يتذكرك أحد طالما لم تجرحيه، حقيقة تؤلمك؟! يؤلمك أن نايس رحل لأنك كنت لطيفة معه أكثر من اللازم، الكل رحل عنك يا سارة لأنك طيبة.. لأنك الأفضل.. لأنك مملة.. لأنك بلا طعم.. البشر يحبون من يعذبهم،

من ينزع أحشاءهم ويتذوقها أمام أعينهم، بينما أنت تدلكين أطرافهم.. تعملين على راحتهم، تعطينهم السلام وهم لا يسعون إليه.. هم يسعون إلى الوجع، إلى المغامرة، إلى الحرب».

لم أشعر بالغضب... للأسف -كما يفعل نايس معي طوال الوقت- كلامها قاسٍ ولكنه حقيقي.

أكملت هي:

- «أنا أرى أن المسالة ببساطة تكمن في سؤال واحد: ما الذي نريده حقًا.. أن نكون سعداء.. أم أن نبدو سعداء أمام الآخرين؟ لو كانت الأولى هي الاختيار الصحيح، لكان الأمر أسهل بكثير، يمكننا أن نجد سعادتنا في موسيقى رائعة أو وجبة طيبة، ولكن هذا لا يكفي في نظر من حولك، فلا ترين الانبهار في أعينهم، فنبذل قصارى جهدنا لنبدو كذلك، ومع تكرار الأمر ننسى مسببات السعادة الحقيقية لأنفسنا، وبعد أن قدمت جميع القرابين مقابل حبهم لي... واكتشفت أنني لم أعد أحبهم وأصبح تفكيري كله يدور حول طرق للتخلص منهم، أشعر بهم خلف أذني يراقبون انفعالاتي.. أعيش حياة لا أريدها لأرضي بشرًا لا أطيقهم، ويطالبونك طوال الوقت بتضحيات أنت لست مطالبًا بها».

- «أعتقد أن هؤلاء البشر يضحون من أجل من يحبونهم يا فريدة، وفي هذه الحالة يكونون سعداء حقًا»، قالها أدهم وهو ينظر إليَّ.

ضحكت فريدة وقالت: **«آه بالطبع.. حدثني يا أدهم إذًا عن السعادة التي عاشتها أمك لأنها ضحت بحياتها لتعيش خادمة لك؟».**

جز أدهم على أسنانه ورمقها بنظرة نارية لم أرها في عينيه من قبل، فابتسمت فريدة بشماتة وأدارت وجهها.. وكأنها ضغطت على زر تعرف مكانه جيدًا.

قلت لأشتت تفكير أدهم:

- «علمتني أمي شيئين.. إني إذا أردت شيئًا فعلي أن أضحي بشيء في المقابل، إذا ابتاعت لي تلك الحقيبة المدرسية ذات الساعة في مقدمتها، فلن تبتاع لي ذلك الفستان الأخضر الذي كنت أمر من أمامه يوميًا وأتخيل نفسي به وأنا أدور حول نفسي وهو يدور حولي، كنت أغمض عيني وأتخيل أن الفستان سيعطيني قدرة على الطيران، ولكني اخترت الحقيبة ذات الساعة حتى أبهر اصدقائي في المدرسة، وأجعلهم يحبوني لأني سأتركهم يحملونها ويلعبون بها، ولكن بعد أسبوع انكسرت الساعة، وبدأت ألحظ حجم الحقيبة الضيق من الداخل أضيق، ندمت أني ضحيت بالفستان وتمنيت أن أمي لم تخيرني بين الاثنين حتى لا أختبر شعور الندم هذا، وأصب غضبي عليها، ولم يخطر على بالي قط وقتها أن أتمنى ألا يتعين عليَّ أن أضحي بشيء من أجل شيء، فما الذي يمنع أن أحصل على الفستان والحقيبة! خاصة أن حال أهلي كان ميسورًا، ولكن أمي علمتني درسًا في التضحية، وفي الاختيار، ونما خوفي من اتخاذ القرارات المصيرية، كنت أخشى الندم وتلك النغزة التي تطعن القلب، تركت أموري للقدر حتى إذا ساءت الأمور أشكو منها إليه وأنا راضية، و"يا بخت من بات مظلوم ولا باتش ظالم". لم أسأل نفسي وقتها أيضًا لماذا يجب أصلاً أن أكون واحدًا من الاثنين..لماذا لا أنام وخلاص!!».

داعب أدهم خصلات شعري أمام نظرات فريدة الكارهه وسألني:

- «والشيء الثاني يا سارة؟».

قلت: **«الشيء الثاني كان ترسيخ مبدأ "الحمد لله إنها جت على أد كده" في عقلي، انكسرت ساعة الشنطة التي حرمتك من الطيران بالفستان، الحمد لله أنها "جت على أد كده يا سارة".. فأنت سليمة وهذا الأهم.. فداكِ، فدتني من ماذا يا أمي؟**

- من أي شرور.

- وهل الشرور تستهدفني يا أمي؟
- طوال الوقت ولكن الله يفدينا بأشياء صغيرة ليحمينا منها.
- أيأخذ الله أشياء في مقابل حمايتنا؟
- الله لا يحتاج منا شيئًا يا سارة.. نحن من نحتاجه!
- ليحمنا من الشرور يا أمي؟
- نعم يا حبيبتي.

وماتت أمي وحمدت الله أنها "جت على كده" وأن أبي بخير، ثم مات أبي فحمدت الله أنني سليمة وبخير، ورحل نايس إلى القاهرة وانقطعت أخباره فحمدت الله مرة أخرى على أنني سليمة وأنها جت على أد كده. ظللت سنوات وحيدة أعمل بتلك الحضانة وأعلم أطفالاً أشك أن أحصل على واحد مثلهم في رحمي، فتركت العمل وقررت أن أعمل مترجمة من البيت، فحمدت الله أنها جت على أد كده، وجئت إلى القاهرة لأبحث عن أي شيء أضعه جواري حتى جاءت الشرور لتستفرد بي وتنهشني، وودت أن أبحث عن الحلم يفديني الله به إذا هاجمتني الشرور».

- «التضحية خدعة يا سارة! علَّمها لنا أهلنا ليبرروا ضعفهم، ليس هناك ما نريده ولا نستطيع أن نصل إليه، ولكن لن يحب أحد أن يراك تحققين أحلامك، لأن هذا سيدفعه أن يهز مؤخرته السمينة ليركض وراء أحلامه أيضًا، لأن وصولك لأحلامك خاصة وإن كانت صعبة من وجهة نظر من حولك، يوتر سكون اليأس بقلوبهم، تغلي بأمعائهم الرغبة في الحياة ومطاردة الحلم فيطفئونها بالولولة على حظهم وبتسليم أمرهم لله الذي هو بريء منهم كما برئوا هم من أنفسهم وفقدوا الإيمان بروح الله فيهم، فيبررون غباءهم بـ"الحمد لله إنها جت على أد كده" ويفسرون فشلهم بأن "الدنيا ما بتديش محتاج" ويعللون كل هذا بأنه ابتلاء من الله».

- «ألا تصدقي أن الله أحيانا يبتلي عباده ليختبرهم؟»، سألها أدهم.
- «أصدق أنه يبتلي الشخص الذي يظن بداخله أنه لا يزال بحاجة لاختبار قاسٍ حتى يقترب إلى الله، وكأن علينا أن نتعذب لنصل إليه ونراه فينا. مع أني أظن أن المتعة هي بداية الوصول إليه».
- «لو افترضنا أن كلامك صحيح فهذا معناه أن كل ما يحدث لكِ في حياتك، أردتِه أن يحدث.. كالوضع الملعون الذي نعيشه الآن»، سألها أدهم.
- «ربما.. لا أدري».ردت عليه ببرود.
هنا انفجر أدهم فيها للمرة الأولى، وسبها ثم ألقى بكتاب على وجهها، لتتركه هي يصطم بوجهها دون أن تحميه. وقالت بصوت رتيب:
- «يشعر أدهم الآن بالغضب لأنني ورطته معي، أدهم غاضب مني ولكنه راضٍ عن العالم، هذا هو الشيء الوحيد القادر على إضحاكي الآن، شكل أدهم وهو يقف في الخراء الذي أحاول أن أخلصه منه يصرخ ويصرخ، أرجوكِ اتركيني في الخراء فأنا أحبه، أنا أحب السيارات وعوادمها وأحب المسوخ، بل أتمنى أن أكون واحدًا منهم، أحب أن أدفع المال مقابل حقي في الحياة، أنا أحب أن أكون عبدًا يا فريدة دعيني وشأني! هل تعلم يا أدهم أننا نعيش في حقبة زمنية أهم رياضة فيها، هي دحرجة الكرة، الشخص الذي يدحرج الكرة هو أهم شأنًا الآن على الكرة التي ندفع فيها ثمن الغذاء الذي نتناوله، هل تظن أنها النهاية... لا، قريبًا سندفع ثمن الهواء، من قبلنا، الذين كانوا يأكلون من خشاش الأرض، إذا كنت أخبرتهم أنهم سيدفعون مالاً مقابل الطعام، سيسألونك: "مال.. ما معنى هذا؟"، المال يا عزيزي.. النقود، الذهب والقطران، ليس هناك فرق، فنحن نعيش في زمن أصبحت فيه المستحيلات واقعًا، ننتحر كل يوم، نموت كل يوم،

المسوخ لم تعد تظهر في الليل كالأساطير، بل أصبحت تجلسنا نحن في الليل على أرائكنا متكئين، لنشاهدها تجلس أمام عدسات زجاجية، تنشر الخراء، ونحن نبتلعه راضين، نبتلعه شاكرين لها، شكرًا أعزائي ساكني الصندوق على الخراء، شكرًا لقد أخذ كلٌّ منا حصة كافية وتزيد. أنت تعلم الخراء جيدًا يا أدهم أكثر مني، لن أحدثك عنه، فأنت تصنعه في أفلامك.

لا عليك يا أدهم، كنت مثلك يومًا ما، عندما كان أكبر همٍّ في حياتي هو رحيل خالد، فليسقط خالد في بالوعة الخراء ولتذهب معه يا أدهم إن شئت، إن كنت ربيت ابنتي ريم على شيء واحد نافع، فهو تخلصها من حياتها».

هنا دمعت عين فريدة واهتزت شفتها، تلك هي المرة الأولى التي تتحدث فيها عن خالد والد ريم أو ريم نفسها. أكملت وهي تتماسك وترفض أن تترك تلك الدمعة أن تهرب منها:

- «إن أردت الصدق، كان في رحيل خالد راحة، شعرت وكأنه حررني من عبء القتال من أجل استمرار هذا الحب، ركل بقدمه المقعد الذي تشبثت به أصابع أقدامنا، حتى لا يضغط الحبل المعلق بالسقف على رقبتنا ونموت، موت هذا الزواج أعطاني بداية جديدة، لم أشعر بأي ألم وأنا أرى خالد يعطيني ظهره ويرحل، ولكن ذلك لأنه قد استنفر جميع أنواع الوجع عندما كان يتركني ببطء، وكأنني أنتظر الموت في أي لحظة ولكنه يأتي على مهل، فعندما تجده أمامك، تركض أنت إليه، لم أفتقده عندما رحل، ولكني افتقدته عندما كان يستعد للرحيل، كنت أراقب ملامحه وهي تختفي من أمامي، اهتمامه وهو يتلاشى، كنت أراه أيضًا عندما يأتي ويلتقطني، يقوم بنفض الغبار عني حتى يتأملني كأحد إنجازاته ثم يلصقني بالحائط مرة أخرى، ويبتسم لنفسه بفخر كلما مر أمامي، وكأن خطافًا في أحشائي يحاول اقتلاع شيء، ولكنه

في كل مرة يخرج خاويًا، بعد أن يترك بي ندبة لا تلتئم، ندبة أشعر بها تغلي في أمعائي وتتقيح وتفرز سمومًا تفسد روحي، وكلما تعلقت بك يا أدهم، أشعر بافتقادي لخالد يهاجمني مرة أخرى وينبض الجرح ويفرز سمومه فأخشي منك ومن نفسي ومن الألم.

ولكني لن أحمل خالد عبء خرابي كاملاً، فجزء كبير كان خرِبًا من قبل حتى أن أقابل خالد، الكوابيس التي ترافقني، والتي لا تمت بصلة لأي جزء من حياتي، اضطراب نومي، عدم قدرتي على النوم بجوار أي شخص، حتى خالد بعد زواجنا، لم أستطع أن أغفو بين ذراعيه، أزمة الثقة التي ولدتُ بها، ولم أستطع أن أتخلص منها، ولا أتذكر سببًا واحدًا زرعها بداخلي، خلايا مخي التي لا تتوقف عن العمل، لا يوقفها نوم ولا كحول ولا حشيش ولا ليلة دافئة عامرة، لا يتوقف عن العمل، لا يتوقف عن طرح أسئلة تفسد عليَّ كل لحظة من حياتي، أسئلة لا أستطع إلا أن أرد عليها بالحقيقة، فأفسد كل لحظة رائعة مررت بها، نهم روحي لمعرفة حقيقة ما يشعر به الآخرون دون أي تجميل، تصريحي بالحقيقة الذي لا يعجب الكثيرون، ولكن يمكن أن أموت ولا أشارك حديثًا بين اثنين كل منهما يواسي الآخر بمجاملات كاذبة، يهزان رؤوسهما في مودة شاكرين بعضهما على النفاق. لا! لن أخبرك يا عزيزتي أن ابنك الصغير جميل، ابنك قبيح وهذا قدرك وعليك أن تتقبليه، وليس لك مني سوى بعض المساعدة لتتصالحي مع تلك الحقيقة، لا يا عزيزي! لا يبدو شكلك مثيرًا بهذا الكرش، ولكن من الممكن أن أساعدك في أن تهز طولك لتفقده، لن أضع نفسي وشخصًا آخر في موقف مثير للشفقة حتى لا أجرحه، الذي يتجنب الوجع الأسهل له أن يترك هذا العالم سريعًا، كان خالد وأصدقاؤه وأصدقائي وقتها، يكرهونني لذلك. ماذا يريد البشر حقًّا يا سارة؟!

هل يود الناس من يبعدهم عن هواجسهم القاتلة أم من يقربهم منها؟ من يحاول معهم أن يكتشفها ويخلصهم منها؟ أم من يجعلهم مسخًا لا يشبه روحهم يقول ويفعل كل ما لا يريد؟ ماذا نريد حقًا؟ جلست في يوم بعد زواج دام خمس سنوات مع خالد، أحاول تذكر المرّة الأخيرة التي كنت أريد فيها الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.. لم أتذكر، أبعدني خالد عن كل حقيقة، أبعدني عن هواجسي، أبعدني عني وجعلني أعيش هواجسه وعالمه هو. أزماته الذكورية مع نفسه، خططه وأحلامه، إقناعه لنفسه دائمًا أنه أفضل مني، وكأنها مسابقة، وكأننا لسنا فريقًا واحدًا، وكأننا نتنافس والجمهور أصدقاؤنا، كان يهمه دائمًا أن يكون الفائز، وكان يؤلمه أنني أرى ذلك، وكنت كل مرة أتركه فيها يفوز بإرادتي، تنغرز ابتسامتي المشفقة عليه كنصل في رجولته، وأصبحت حياتنا تدور حول تحرير خالد مني، حول ندم خالد لأنه تورط فيَّ، جعلني أكرهه، وأكره نفسي. تركته وأنا لا أجد شغفًا واحدًا في الحياة، قابلته وأنا كذلك، فأصبح هو شغفي الوحيد، والآن لن أستطيع أن أستبدل به آخر، شعرت أنني فقدت حاسة البصر والبصيرة، لا أشعر بأي شيء، لا أريد شيئًا، ألف حول عقارب الساعة أراقصها رقصة الملل، يهاجمني الكابوس كل يوم، أظل أركض في ممر مظلم، في نهايته بقايا نور تجعلني أجري تجاهه، ولكن بعد الكثير والكثير من الركض، لا يزيد النور ولا يقترب، وتنقص أنفاسي، أركض أسرع، فيتوقف قلبي عن الدق ويختفي النور بالتدريج، ينقطع النور كله، ولا أسمع سوى آخر أنفاس يلفظها صدري».

ثم نظرت إليَّ أنا وقالت، وكأنها تقدم لي تفسيرًا مدينة لي به:

- «أتعلمين يا سارة حين حملت حقيبتي ورحلت عن ريم، وهي تجلس على حجر أمي تنظر لي بعيون واسعة ضاحكة، غير

متوقعة أي سوء، تظن أنني سأعود ككل مرة، تضمها أمي بذراعيها حول خصرها الصغير، وكأنها تحاول حمايتها من جحودي، لم يرَ وقتها أيٌّ منهم السهم المسموم الذي شق طريقة إلى قلبي بمجرد أن أغلقت الباب، وظل يبث سمومه فيَّ إلى الآن».

- **«لماذا رحلتِ عنها إذًا يا فريدة!!»**. سألتها وقلبي يغزوه بعض الشفقة عليها.

- **«لأنه كان عليَّ أن أرحل.. أنا لم أرد أطفالاً.. تلك كانت رغبة خالد، وعندما رحل رحلتْ عني رغبته، وأنا لا أستطيع تحمل عبء علاقة معقدة كتلك وحدي، كل هذا الحب الذي عليَّ أن أقدمه لها.. كل الحب الذي ستعطيه هي لي وسيكون عليَّ في المقابل أن أضحى من أجله.. وفي النهاية لن أكون الأم المثالية، وسأكون الشوكة المغروسة في قلبها للأبد مهما حاولت أن أكون رائعة.. الطفل يرى أهله آلهة.. وعندما يستيقظ في ذلك اليوم ليكتشف أنهم بشر تتحطم الجنة التي كان يحياها تحت أقدامهم».**

أتأمل فريدة، تحكي وتحكي، تتحرك عضلات وجهها بشكل يجعلها جميلة بغضِّ النظر عن فظاعة وغرابة وجنون ما تقوله، جلست أمامها بفضول طفل يستمع إلى حكايات جدته، ولأنه يشعر أن جدته كبيرة بشكل كافٍ لتعلم كل شيء عن أي شيء، أومئ برأسي مندهشة لكن مُصدقة، ليس فقط لصوتها العالي بالشكل الكافي ليسيطر على انتباهك دون أن يزعجك، ولكن لأن كل شيء يبدو حقيقيًّا جدًّا ومناسبًا. فريدة لم تكن كالآخرين الذين قابلتهم في حياتي، كانت كل الأحداث التي أخبرتنا عنها تناسب طلَّتها وطاقتها تمامًا، الشيء الحقيقي لم تره عينك لفترة طويلة، ولكنك مهما مر عليك العمر، عندما تقع عينك عليه ستدركه، وستصدقه دون شائبة شك، كانت فريدة شيطانة، ساحرة لا يقدر قلبك على كرهها، مثل

هذا "الفيلين" الوسيم عندما يموت في نهاية الفيلم.. ستداري تلك الدمعة الصغيرة التي تطل من عينك حزنًا عليه.. كأنه كان يدك في الأرض.. كأنه كان يحقق كل أحلامك المكبوتة داخلك وراء ستار الطيبة والصبر وكظم الغيظ.

توقفت فريدة عن الكلام بعد أن أنهكها.. وتكومت أنا وأدهم في نقطة بعيدة عنها وظللنا نتحدث لساعات، عن الأحلام التي تركناها وراءنا للأبد، عن الموت الذي يخطو إلينا، ثم حكى لي عن تلك السيدة التي كانت صديقة لوالدته، وتكبره بستة عشر عامًا، كانت حبه الأول ومرشدته الأولى في عالم النساء، عاش معها في بيتها سنين طويلة كأنهما أسرة صغيرة، كانت رائعة وكان يعشق تدويرة صدرها الصغير، والأشكال التي تقوم بتطريزها بنفسها على أغطية الوسادات ومفارش المائدة، كان يحب رائحتها التي تشبه عصير الخوخ الطازج، وكان لا يجد ملاذً إلا على صدرها، عوضها هو عن أعوام حرمان عاشتها بعد طلاقها من زوجها، وكان مخلصًا لها حتى ماتت.

نظرت له فوجدته كف عن الكلام والحركة وأغلق عينيه وانتظم تنفسه حتى نام، ضممته إليَّ وحاولت أن أوجه بقدمي وجه الكشاف إلى الكالورمي وقفزت فيها.

***

كنت أنتظر أن يفشل الأمر تنفيذًا لتهديد هريما بعدم ذهابي إلى النقطة الداكنة المحرمة، ولكن عندما وجدت نفسي على أرض الكالورمي تذكرت أنها حذرتني فقط من الذهاب إلى هناك، ولكنها لم تقل ما هو العقاب، وهل هناك عقاب من الأساس أم لا!؟

مشيت إلى الأمام وكنت أشعر أن هناك شيئًا بداخلي يوجهني إلى نقطة بعينها لا أعلمها ولا أعلم الغرض من الذهاب إليها، لم يبهرني أي شيء على الكالورمي رغم أنه جديد ورائع، كان هناك

هدف يجب أن أصل إليه، مشيت حتى بدأت ألوان الكالورمي تتحول بالتدريج إلى لون بني ذي لمعة ذهبية، والطريق يضيق حتى أصبح ممرٌ ضيقًا جدًا لشخص واحد.

وجدت هريما تقف على الأرض الرملية، كان المكان يشبه منطقة عمل هجرها العمال، الطوب والأحجار الكبيرة في كل مكان تظهر من بعيد وتصنع أطلالاً لم أستطع التمييز إذا كانت على وشك الانهيار التام، أم تنقصها خطوات قليلة على الكمال. اقتربت من هريما التي بدت أكثر ودًا من المرة الماضية، أخذتني بين ذراعيها وضمتني إليها ضمة يكفي حنانها أن يروي أجيالاً وعقودًا من الحرمان، ثم أبعدتني ونظرت في عيني وأدركتها تقول:

- **«عليك أن تعيدي الثعبان إلى مانه».**

ووضعت يدها على عيني وجعلتني أرى «أبيب» وهو يمسك نفس الثعبان الذي تحتفظ به ريم في بيتها، ويقربه من جسده، ويتركه يمد رأسه إلى صرته، فيمتص الثعبان كل السم من جسد أبيب، يصرخ أبيب صرخة تزلزل الأرض، ويمتص الثعبان السم من جسد أبيب ويخزنه في فمه حتى أصبح جسد أبيب خاليًا من أي سم، خاليًا من أي شر، ثم بلع أبيب الثعبان بعد أن شكره بقبلة على رأسه، وتركه يزحف داخل جسده، حتى أطلَّ برأسه من بين فخذيه.

كان على أبيب تحرير جسده من السم حتى يفتح له الطهر طريقًا إلى هريما التي تنتظره على الشط الآخر، ولكن عليه أيضًا أن يحتفظ بالثعبان في أسفله حتى يظل قويًا وسالمًا، ولكن أبيب بدون ثعبانه، تثور مياهه وتشق الأرض بسيوفها بحثًا عنه، يجب أن يعود الثعبان إلى أبيب يا سارة.

هززت رأسي لهريما وأنا أتساءل كيف يمكنني أن أحضر شيئًا إلى الكالورمي، فجعلتني هريما أرى الطريقة الوحيدة التي أستطيع من

خلالها أن أدخل الثعبان عند نقطة أبيب الداكنة ولكن على أرض الواقع وليس الكالورمي.
فانتفض جسدي وجزعت روحي مما رأيته، فأمسكت هريما بذراعي جيدًا وأفلتت جفني، ونظرت إلى عيني اخترقت روحي، وتحدثت بصوتها للمرة الأولى وكان آلة سماوية تعزف لحنًا جميلاً وقالت:
- **«اذا لم تفعلي ذلك ستقتلني فريدة.. وهي تستطيع أن تفعل ذلك».**
- **«لماذا تريد أن تقتلك فريدة!».**
ولكنها اختفت من أمامي فوجدت نفسي في الغرفة بين ذراعي أدهم، بينما كانت تقف فريدة فوقنا ممسكة بمفتاح أنبوب الغاز وهوت بها على جمجمة أدهم لتهشمها.
- **«حسنًا.. لقد أحبك أدهم.. أبهرك هذا.. جوعك وإحساسك بالنقص أعمى عينك عن تشوهه، ليس هناك أي أزمة إذا منحك هذا بعضًا من المتعة عندما لمسك هنا أو هناك.. ولكن لكي أكون واضحة في هذا الأمر لن يتم صناعة أطفال هنا.. لن يدخل أي ثعبان في أي جُحر».** كانت فريدة تتحدث بجنون واللعاب يتطاير من فمها.
- **«ما خطبك يا ريم.. هل مسك شيطان؟! يا الله... هل أنت من قتل أشرف أيضًا؟!».**
- **«بالطبع... هل أنت غبية.. ستقتل تلك الدودة هذا الشحط».**
عدت إلى الوراء زحفًا على الأرض راسمة بمؤخرتي طريقًا من دماء أدهم التي سالت من رأسه وأغرقت الغرفة.
أكملت ريم والحماسة مسيطرة عليها فلم تلحظ الرعب في عيني، وسعت حدقتها حتى اختفت جفونها تمامًا، وبدت بعينيها الجاحظتين على ضوء الكشاف الصغير تبدو كدمية قاتلة كبيرة.

وبحركة واحدة عنيفة أسقطت الستار المغطي للحائط طوال تلك الفترة الماضية، فرأيت خيالات رسوم على الحائط كانت مجموعة من الدوائر المرتبة داخل بعضها حسب حجمها وعلى كل دائرة رسوم صغيرة على طول الدائرة وكأنها تحكي قصة ما، والعامل المشترك الوحيد بين كل الدوائر هو تلك النقطة السوداء الكبيرة الموجودة في أماكن متفرقة على كل دائرة.

التقطت فريدة الكشاف وأشارت إلى الدائرة الأولى الكبرى، التي تحتوي باقي الدوائر وقالت:

- «من هنا بدأت ريم ولكنها لم تكمل كثيرًا.. وقد أكملت أنا الباقي».

بدأت ماذا يا فريدة!! رن السؤال في ذهني ولكنه لم يخرج مني، الخوف والتعب ألجما جسدي ولساني، بينما رمقت بطرف عيني قدم أدهم التي ترتعش في المراحل الأخيرة لخروج الروح من جسده. الأمر كله كان فوق طاقتي على التحمل.. ورغم كل هذا وبنفس الحماس الذي جعلها تبدو مرعبة أكثر مما كانت غامضة، أكملت رانيا حديثها وكأنها انتهت من وجبة غداء، وكأنها لا تترك اثنين قتلى وراءها.. بل ثلاثة إذا حسبنا ريم.

وبدأت تشرح نظريتها/ نظرية ريم/ نظرية ريجليوس.

***

تقول النظرية إن هريما كانت تعيش قبلنا ليس قبلنا بآلاف السنين، ولا ملايين السنين ولا بلايين السنين بل تتحدث فريدة عن حقبة كونية أخرى كانت على الأرض. تقول فريدة إن هريما عاشت في الخلق الأول وبشرت بالخلق الثاني، عاشت هريما نهاية الخلق الأول ولذلك كان عليها أن تنقذنا من الفناء.

تحكي فريدة أن الأرض اهتزت لحزن هريما وانشقت ففتحت مجالاً لأبيب في بطن الأرض ليسير ويأتي إلى هريما، رغبتها في الحياة

وصراعها من أجل البقاء فجر الرحم الأول بداخلها، رحمًا رواه أبيب لتنمو بداخل هريما دائرة الضوء ثم تنطلق من داخلها إلى عنان السماء بعد أن تنقسم إلى نصفين في نقطة بعيدة عن الأرض في رعاية الجد الأول ريجليوس، حتى تنهار الأرض، وعندما تتشكل من جديد يعودان إليها رجلاً وامرأة من نور يعمراها ولا يوقف تكاثرهما سوى موت الروح الطيبة للرحم الأول.

تقول فريدة إن ريجليوس يجب أن يتحرك من مكانه حتى يواجه وجه الأسد الذي يملك جسم إنسان، وتنتهي معاناتنا للأبد، وهو لن يتحرك إلا للألم.. لن يتحرك إلا إذا ماتت هريما.

تقول فريدة -للخلاصة- إنها مجنونة.

تحاملت على نفسي لأفرد طولي وقلت لها:

- **«يا الله يا فريدة.. إن ندمك على ريم يأكلك حية».**

- **«لا داعي لهذا يا سارة.. الأمر ليس له علاقة بريم».**

رغم كل شيء، رغم جسدي الذي أنهكه التعب، رغم رعشة ضوء الكشاف المبشرة بذهابه، رغم أني الأضعف من الجوع بينما كانت فريدة تتغذى على جثة أشرف، رغم رائحة التحلل القادمة من جثة أشرف وتحرق روحي، إلا أني ضحكت، ضحكت كما لم أضحك في حياتي من قبل، ضحكت حتى سقطت على الأرض وانقطعت أنفاسي وظللت أسعل وأغرقت الدموع وجهي بينما وقفت فريدة تتأملني منتظرة أن أنهي الوصلة.. ولكني لم أستطع أن أتوقف.. كان الأمر خارجًا عن يدي.

فجاءت وجلست بجواري وقالت:

- **«سارة.. أنا لم أعد قادرة على العودة إلى هناك.. عليك أن تقتلي هريما».**

هنا.. توقفت عن الضحك.

(16)

بنجاح، ليس لدي القوانين الشعبية لتلك اللعبة، الأمر لا يمت بصلة للعدل هنا، والأمر القاسي - الذي عليك أن تكتشفه مبكرًا- أنك يجب عليك أن تعتمد على نفسك. تبدو الكلمة بوقعها الأول سهلة عليك، وأنت تتعكز على كل من حولك وما حولك وتسير مرددًا: «أنا أعتمد على نفسي»، بينما أنت لم تتعرف على نفسك حتى لتعتمد عليها، لم تدعُها حتى على فنجان من القهوة وتتبادلا أطراف الحديث، أنك حتى لا تعرف لون عينها الحقيقي، أنك لم تتشرف بلقاء ذاتك المجيدة المشغولة بكل شيء آخر ما عدا نفسها.

لن تتعرف على نفسك حقًا إلا وسط اللاشيء، اللاحياة، اللاماء، والجوع والخوف يسيطران على قلبك وأنت تراقب جسدك وهو يتمزق، تكاد تسمع صوت ضمور عضلة قلبك وقت حدوثه كما أسمعه الآن، بينما تقف أمامك امرأة مجنونة تطلب منك أن تقتل امرأة أخرى هي الوحيدة التي أنقذتك وأشعرتك بالحماية، ولكن لديك معها هي أيضًا مشكلة واحدة صغيرة:

وهي احتمالية عدم وجودها إلا في خيالك فقط.

- **«حسنًا فريدة.. سأقتل هريما ولكن عليك أن تخبريني كيف».**
- **«في التوقيت المناسب».**
- **«ماذا تقصدين؟».**

اقتربت فريدة من الحائط مرة أخرى وقامت بلف الدائرة المرسومة على الحائط وكأنها تدير عجلة، فاستجابت جميع الدوائر للمستها وبدأت جميعًا في اللف بسرعة.

قبل أن أسأل قالت:

- **«عندما تتوقف تلك الدوائر.. ستذهبين للكالورمي وتقتلين هريما».**

- **«أنا لا أفهم شيئًا!».**
- **«هل ترين تلك النقاط السوداء في كل دائرة؟».**

هززت رأسي أنه نعم.

- **«عندما يتلاقون جميعًا على هذا الخط...»**، قالتها ورسمت خطًا من مركز الدائرة الصغيرة ومرت به لأعلى على كل الدوائر حتى وصلت إلى آخر دائرة.

وأكملت كلامها:

- **«عندما يحدث هذا.. ستتوقف كل الدوائر عن الدوران وسيتوقف الزمن.. وقتها فقط يمكنك أن تغيري أحداثًا سابقة وتعيدي ترتيب الحياة».**

ثم نظرت إليَّ وقالت:

- **«في التوقيت المناسب.. ستذهبين إلى الكالورمي.. وتقتلين هريما.. وسينتهي كل شيء.. أعدك بهذا».**

هززت رأسي بأني فهمت.

بعد أن جررنا جثة أدهم وأخرجناها لترقد بجوار جثة أشرف في غرفة الجلوس، جلسنا أنا وفريدة ننظر للدوائر وهي تدور بعقولنا.

- «ها يا سارة.. ما هي خطيئة أمك.. غير موضوع التضحية هذا.. إنه مجرد غباء».

- «أمي لم ترتكب خطيئة في حقي يا ريم.. أمي بالفعل كانت طيبة».

- «نعم بالطبع.. الموتى كلهم طيبون.. ولكن قبل ذلك.. ماذا فعلت بك وأنتِ صغييرة لتصبحي بهذا التشوه».

- «التشوه!! لا تتحدثي عن التشوه يا ريم الله يرضى عنك.. لقد قتلت اثنين وتخططين لقتل الثالث».

- «أنا لم أنكر أبدًا تشوهي... وهذا ما يجعلك أسوأ مني».

- «آه طبعًا». ضحكت بمرارة.

داعبت شعري وكأني طفلة صغيرة وخرجت من الغرفة وهي تقول: **«سأبحث عن تكيلا.. عطشانة».**

تأملتُ الدوائر وأنا ألعن ريم التي جعلت كل مواقفي السيئة مع أمي تعود من جديد.. كل موقف.. كل صفعة.. كل نظرة... كل كلمة...كيف لم أرَ أن أمي بهذا السوء حتى الآن... كيف لم أرَ ما فعلته بي من قبل... كيف يجعلنا الحب والإنكار بهذا الغباء؟!!

- **«ها.. هل فكرت في شيء؟»**، قالتها فريدة وهي تدخل الغرفة.

- **«لا!».**

ابتسمت بسخرية وهي تشرب من زجاجة التكيلا.

- **«حسنًا يا سارة سأحكي أنا قصتك بدلاً عنك. أمي لم تكن سيئة ولكنها كانت غبية.. كانت كل تعبيراتها عن الحب سيئة للغاية.. جعلتني نسخة ضعيفة مشوهة منها.. لم تعلمني المواجهة لأنها أفرغت نقصها فيَّ... لم تجد كائنًا أصغر مني تمارس سلطتها عليه لتشعر بالرضا عن نفسها».**

- **«اخرسي يا ريم».**

- **«هاهاهاعا...»**. ثم حولت صوتها لصوت طفلة صغيرة محاولة أن تقلدني: **«لماذا توقفتِ عن ضمي يا أمي حتى أصبحت ملامستنا شيئًا مزعجًا لي؟ لماذا كرهتِ ملامحي؟ لأنها لا تشبهك؟! لماذا حللت مشاكل لا تخصني بإقصائي عن قلبك؟ هل أحببتني مثلما أحببتِ أخي الذي مات صغيرًا؟ هل ارتكبتُ ذنبًا أنني لم أمت مثله!! هل كان يجب عليَّ الموت حتى تعترفي أني طيبة؟ هل يؤلمك يا أمي أنني أفضل منك؟!»**، ثم اقتربت مني وقالت الأخيرة ببطء.

- **«لقد رأيتكِ يا أمي يومها ولكن لم أخبرك»**

وجدتني أجلس فوق فريدة أكيل لها اللكمات.. وهذا ما رجعنا لنقطة البداية.

***

كان يجب أن يوقفني أحد قبل أن أقتل الجسد المستسلم تحتي وإن لم أكن فقدت عقلي فأنا فعلاً أرى شبح ابتسامة على جانب وجهه! تلك كانت المرة الأولى التي أصفع فيها كائنًا حيًّا بيدي على وجهه، ثم أوجه له لكمة بقبضتي للناحية الأخرى، فيقع على الأرض لأقفز فوقه وأنا أصرخ بصوت يصم أذنيَّ، وأناولها الضربات على كل جسدها، لا أرى أين تحط قبضتي، لا يهمني إذا كانت ستصل للجسد لكمة أم مصفعة، الشيء المهم الوحيد وقتها كان أن أحافظ على صراخي مستمرًّا بنفس إيقاع اللكمات.

وفي النهاية أمسكت بكتفها حتى أجذبه لأعلي وأهبط برأسها بقوة على الأرض عدة مرات متتالية، كان كل شيء قد انفجر بداخلي ولم يعد لدي القدرة أو الرغبة في السيطرة عليه.

لم يوقفني شيء إلا عندما التقطت ذاك المفتاح الحديدي وضربت فريدة على رأسها ضربة لم يطاوعني قلبي أن تكون ضربة قاتلة. تركتني أفعل ذلك.. حتى تجرح جلدها وظهرت عظام جمجمتها.. تقبلت الصفعة بصمت وهي راضية... نظرتُ إلى ما فعلتُه والدم يغرقني، لقد حولتني فريدة لنسخة منها قادرة على القتل.

قمت من فوقها وزحفت بعيدًا أبكي كما لم أبكِ من قبل.. وكأني أحرر أنهارًا مسمَّمة سُجنت بداخلي أعوامًا، زحفت فريدة إليَّ وهي تتحامل على نفسها.. واحتضنتني بقوة وهي تهدهدني كأم وتهمس لي بشكل متكرر، وكأنها تغني لي مساعدة إياي على النوم.

- **«إنك بخير الآن... إنك بخير الآن».**

هنا.. توقفت الدوائر وتلاقت النقاط على الخط المستقيم... ظللت أنظر إلى فريدة التي تحثُّني نظراتها على التنفيذ، وأنظر إلى الكالورمي حيث هريما التي أوصتني بحياتها خيرًا، الوقت ضيق والاختيارات قليلة وأنت ليس لديك كتيب تثق به لقوانين لتلك اللعبة.

***

اخترت الحل الأصعب كعادتي، اخترت أن أضحي بالواقع الماثل أمامي، من أجل فكرة أو طلب قد يكون في خيالي فقط، انقضضتُ على فريدة وأطبقت بيدي على رقبتها، أخنقها وأبكي، تجحظ عيناها فينتفض قلبي، يتشنج جسدها فتنخلع روحي مني. أنا آسفة يا فريدة، أنا أحبك جدًا، ربما مثلما أحببتُ أمي، ولكن جاء اليوم الذي أجعلك فخورة بي، وأقتلك حتى تدركي أني لم أصبح ضعيفة، لطالما كرهت هذا فيه، نعم.. نعم يا فريدة، أغلقي عينيك، ارقدي بسلام للمرة الأولى في حياتك، انتهت الحرب، انتهى الوجع، إنك بخير الآن.. إنكِ بخير الآن.

***

تركت جثتها وبحثت في الشقة بأكلها عن ثعبان أبيب، امسكته وتأملته وأنا أسترجع الطريقة التي أخبرتني بها هريما حتى أستطيع إعادة الثعبان لمكانه الصحيح، في النقطة السوداء على أرض الواقع، في بحيرة فيكتوريا. أدخلت رأس الثعبان بين فخذيَّ، وكان يعلم باقي الطريق، تسلق إلى أحشائي واستقرَّ.

(النهاية)

كنت أنتظر احتفالاتٍ وتصفيقً، موكبًا تترأسه هريما لتشكرني على إنقاذ حياتها، ولكن لم يحدث شيء، أنا في البيت سجينة! كم مرَّ من وقت؟! لا أعلم ولكن جثة ريم لم تتعفن بعد، بينما بدأ بعض من أجزاء جثة أدهم تفوح منه الرائحة.. كان البيت يزداد ضيقًا ثانية تلو الأخرى، والثعبان يرعى في بطني ويجلعها تنتفخ، العرق يسيل على جسدي كله، يدخل في عيني، وفي فمي، وفي روحي، مذاقه المالح يحررني من رغبتي في الحياة، من رغبتي في البقاء، صخرة من حديد تستلقي على صدري بأريحية.

الحزن أكبر من أن أبكي، لقد تخلَّى الكُل عني، بكيت فقط حتى أطفئ النار في رأسي، بقبضتي الصغيرة وجهت لكمات متتالية للجدار.

يا الله لا تَتَخل عني أنت ايضًا، يا الله ما زلت أصدق فيك وسط تلك المأساة، ما زلت أصدق أنك تراقبني وتنظر إليَّ منتظرًا أن أفهم الحكمة من كل هذا فلا تريد أن تتدخل الآن، ولكن أنا عن نفسي في أمسِّ الحاجة للمساعدة أكثر من أي يوم سابق، الأمر لم يعد يقتصر على فكرة خروجي من هنا أم لا، الأمر يكمن في التساؤل عما سيحدث لي إذا خرجت، كيف سأواجه الحياة بعد تلك التجربة، هناك جزء مني لا يريد الخروج، اعتاد هذا البيت بجثثه واختناقه، كما تعودت البركة من قبل، يا الله لا أريد المساعدة، بل أريد وعدًا بأن سيكون لي مكان في الحياة بعد خروجي، حتى نايس عندما أتذكره، وأنه ربما يكون في انتظاري؛ أشعر بغصَّة في أمعائي، جسدي رافض الحياة مغلق على نفسه، واستهلكته التجربة.

وفي لحظة، وبدون مقدمات داخلية، أصابني الجنون، صرخت حتى انقطع نفَسي ركضت بجسدي كله نحو الحائط وكأني أحاول كسر

باب منزل، أمسكت بالكتب ورميتها على جثث أشرف وفريدة وأدهم، أعوي.. أخبط رأسي في الحائط! ثم أحاول خدشه بأظافري فتتكسر.

ثم نظرت إليه، نظرت لأعلى، وصرخت بكياني كله:

- **«أنا غاضبة منك أشد الغضب»**.

فيرد الصمت القاتل:

- **«تحدث لي كما أحدثك!»**. صرخت مرة أخرى وأنا أبكي.

ازداد الصمت، ازدادت الوحشة، إني وحيدة الآن.

لم يتغير شيء، جلست منهكةً واستسلمت للنهاية، وقبل أن أغلق عيني وأنا أحدثني بأنها الأخيرة، انفجرت المياه في كل مكان، مياه بقوة دفع مخيفة وكأنها شلال، لم أجد الوقت لأكتشف المصدر الذي يخرج منه هذا الفيض، امتلأت الغرفة عن آخرها، والجثث تعوم فيها وأنا أحاول بيدٍ أن أغلق أنفي وبيدي الأخرى أزيح الجثث عني، أغلق فمي حتى لا يتسرب لأمعائي الماء المخلوط بالدم، أغيب عن الوعي ببطء، وأشعر بيد ترفعني لأعلى.

- **«لماذا حذرتِني أن أذهب للنقطة السوداء يا هريما طالما لم تعاقبيني»**.

- **«لأني أردتك أن تذهبي إليها في أسرع وقت!»**.

ضوء الشمس أحرق عيني وجلدي، فتحت جفنيَّ بصعوبة شديدة محاولة تبين مكاني، جسدي يتألم من الأسفلت القاسي على الرصيف المواجه للبيت، وجه عم جبار ينظر إليَّ بدهشة وهو يتأملني وأنا ملقاة على الرصيف وملابسي مقطعة وبها دماء، مما أخبرني أنني لم أتخيل شيئًا، ولكن البيت الجاثم أمامي في هدوء يخبرني بالعكس، الحياة تبدو طبيعية أكثر من اللازم، وعلى رغم غرابة كل شيء، لم يشغل بالي سوى شيء واحد.

هذا الجزء المفقود، تلك الكتلة من الوجع والسأم التي كانت تسكن جسدي، عاشت لسنوات في قلبي وفي روحي وأمعائي، وفي أسوأ الأيام كانت تختار رأسي بيتًا لها، تلك الكتلة لم يعد لها وجود في جسدي! بحثت عنها بحثًا محمومًا كأمٍ تبحث عن ابنها في الشارع، ابنها الذي لم ترَ منه سوى الوجع ولكنها لا تستطيع أن تحيا بدونه، لم أجد الكتلة وكأن الثعبان بداخلي أكلها، امتصها كما امتص سموم أبيب من ملايين السنين، أمسكت بجلباب عم جبار وأنا مصابة بالذعر، حاول تهدئتي فدفعته بعيدًا وجلست على الرصيف أبكي، أبكي نفسي القديمة التي لم أعرف غيرها، وأخاف نفسي الجديدة برغم احتمالاتها الرائعة، أبكي غربتي الدائمة تجاه الجديد مهما كان رائعًا.

كيف أتعامل مع كل هذا؟

ماذا يحدث لي؟

ثم رأيتها تقف بعيدة وتنظر لي وهي تبتسم، وسمعتها في عقلي تقول:

- **«أنتِ حرة بعد أن تسلمي الأمانة، الحياة ستبدأ عند عودتك، فأسرعي إليها»**.

****

للميناء الجوي رائحة المطاردة، استنشقتها وتركتها تسري فصدري حتى وصلت إلى خلايا مخي، كدت أركض بمكاني في صالة الانتظار أطارد الحلم، وجه «هريما» طُبع على عيني فعكسته على اللوحات الرقمية بصالة الانتظار، نار شغفي للقاء أحرقت كل الملل بروحي وكانت سلامًا عليَّ.

يا هريما! يا من منحت الحياة لي بعد أعمار من الموت، ممتنة أنا لكِ، على كل ألم، على كل أمل، على كل تجربة حملتني إلى تلك اللحظة.. لحظة الوصول/ الإقلاع/ التحرك للنقطة القادمة.

لا أشغل بالي الآن بـ«نايس» أو ريم أو فريدة الذين اختفوا للأبد دون أثر لهم، وكأن هضبتين حلتا عن كتفي، والبراح الذي خلفوه وراءهم؛ أستطيع أن أطير فيه نحو احتمالات لا نهائية.

وكأني أقابلني للمرة الأولى، رأيتني كما يراني الآخرون.. وقد سعدت بتلك المعرفة –حقًا- كثيرًا جدًا.

سمعت النداء الأخير لطائرتي، فككت الشريطة عني، واقتربت من الطفلة الصغيرة، ووضعتها في يدها وأغلقتها عليها جيدًا، ابتسمت الأم لي، قبلتُ الفتاة في وجنتيها ورحلتُ.

الكالورمي.. تلك اللوحة التي كانت تحدق فيها فريدة كلما أتيت إليها، أنا أرى ما كانت تراه الآن، أستشعر زهدها يتسرب إلى دمائي، ودماء أشرف أغرقت الأرض، تدفعتي للهروب إلى الكالورمي، بل العودة إليها، هل يجب أن أضع لمستي على الكالورمي لتشبه عالمًا خاصًا بي، عالمًا أكثر سلامًا من عالم فريدة على أرض الكالورمي. التقطت الألوان وتركتها تلهو وتلعب فوق لوحة الكالورمي الخاصة بفريدة، وحين أمر بيدي بلون فوق الآخر أتركه يسير ببطء حتى أتابع الحكايات التي تنسجها الألوان، مع كل حركة أخطها إلى أعلى أو أسفل أو حتى في دوائر؛ تمتزج الألوان لتتجسد وجوهًا أفتقدها وأحلامًا تخليت عنها، وأحلامًا تخلت عني، ونقطة بعيدة ساطعة تبشر بالجديد، تبشر بنشوة المتعة الأولى، الخطوة الأولى وأنت طفل والكل يصفق لك بفرح، النجاح الأول، القبلة الأولى، الأمر لا نهائي، باحتمالات لا نهائية، قد تضع لونًا رابعًا وخامسًا وسادسًا، قد تنظر إلى اللوحة بعين وأنت مغلق الأخرى، فترى ما لا تراه بعينيك الاثنتين، ولا يعكر صفوك سوى صوت الجدال الدائر بين أدهم وفريدة على شيء لم تميزه أذني، الصخب الذي يسبق الاتفاق على قرار مصيري، نظرت إليهما من فتحة الباب الموارب، يبدو عليهما الإجهاد، تبدو عليهما النحافة، يبدوان كشخصين لا أعرفهما، وجثة تنوي التعفن في أقرب فرصة.

المشهد كله يبدو ككابوس يطل برأسه العفِن على عالمي ليفسده، عالمي الجميل الهادئ على أرض الكالورمي.

الغلاف: أحمد اللباد

ميريت